يوميات صحابى فى محنة

دراسة تحليلية
لحديث وحادثة الصحابى الجليل

(كعب بن مالك)

مختار نوح

سجن ملحق طره ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّه عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِين وَالأَنصَار الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُم ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم إِنَّهُ بِهِم رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ✪ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَت عَلَيْهِمُ الأَرضُ بِمَا رَحُبَت وَضَاقَت عَلَيْهِم أَنفُسُهُم وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلجَأَ مِنَ اللَّه إِلاَّ إِلَيهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللَّه هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

صدق الله العظيم

إهـــداء

إلى الأستاذ الدكتور / محمد بديع

القيـادة ... هى مـزيـج نفسى يختص الله به من يشـاء من عباده فبعض هذا المزيج من الرحمـة وبعضه من الحزم وبعضه من الفـهم والتـبصـر بالأمـور وبعـضـه من رقـة الطبـاع وصـدق المشاعر ...

وقـد صـاحـبـتـك لثـلاث سنوات كـاملة فى سـجن طره .. فـاسـتـفـدت من علمك وتعلمت من رقـتك ورحـمـتك ... ولقـد أظهـرت بحـسن بصيـرتك فى شخصى حـتى مـا لم أدركـه فى نفـسى من صـفـات وعـالجت منهـا مـا لم يعـالجـه العـالمون من الأطباء .

إنك يـا دكتور بديع . . . النموذج الواقعى الصحيح للقيادة الصحيحة. . . فهنيئاً لمن يسعدهم الله بمتعة الجندية معك .

مختار نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة .. من صاحب العلم والفضل ..

الدكتور .. محمد بديع سامى

أخي قارئ هذا الكتاب .. أدر مؤشر جهاز استقبالك القلبى دون تشويش خارجي حتى تستقبل صوت كعب بن مالك رضى الله عنه وهو يحكى لك قصته وأنت فى حالة صفاء نفسى على نفس الموجة التى حدثت فيها أحداث القصة وهى نفس الموجة التى كتب بها الأخ مختار **(رجل القانون الذى يحمل قلم - وألم شاعر)** هذا الكتاب أو بالحرى التجربة البشرية الراقية .

وأجعل يا أخى القارئ هذا دائماً حالك النفسى فى تلقى أحداث السيرة ومواقف الصحابة الذين قال عنهم رسول الله ﷺ :

« لو انفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه »

حتى فى أخطائهم وتوبتهم من هذه الأخطاء .

بل جهز قلبك بنفس التهيئة لاستقبال آيات القرآن الكريم فكما يقول صاحب ظلال القرآن الوارفة الأستاذ سيد قطب رحمه الله :

« إن هذا القرآن نزل فى جو ساخن ولا يفهم إلا فى مثل الجو الساخن الذى نزل فيه »

فالقرآن الذى نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام على قلب الحبيب المصطفى محمد ﷺ يحتاج أن نستقبله بقلوبنا نحن أيضاً ليكون الرسول

قدوتنا بحق فى تجربة هذا الكتاب وهو محاولة من الكاتب لسماع آيات من سورة التوبة بأذنين فى قلبه لا أذنين فى رأسه فجرب أنت أيضاً يا أخى القارئ هذه التجربة لعل الله أن ينفعنا وإياك وكاتب هذا الكتاب بالقرآن الكريم والسيرة المطهرة وحياة الصحابة .

رضى الله عليهم وجمعنا بهم فى أعلى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين برحمته وهو أرحم الرحمين .

راجى عفو ربه

د . محمد بديع سامى

مقدمة

حول منهج الكتاب
ولماذا هذا الصحابى ؟

لم يكن من الموضوعات المتدارسة بين الناس الإهتمام بالحالة النفسية للإنسان أو مراعاة البعد النفسى فى الأعمال المادية له حتى ظهر الإسلام فى تلك الأرض المتحجرة ... الصفراء منذ ألف وخمسمائة عام تقريباً .. فاهتم بالنفس البشرية لا من حيث التوجيه فحسب .. وإنما من حيث المعالجة .. فعالجت أحكامه النفوس قبل أن تخاطبها والأمثلة على ذلك أكثر من الحصر وأوفر من العد .

ولعل منها تلك المعالجة النفسية لشاب جامح النفس . . يعانى من زيادة الطاقة الجنسية لديه ولم يجد حلاً لنفسه إلا أن يلتمس من الرسول ﷺ الإذن له بالزنا . . وقد فهم الصحابة وهم يتعلمون من نبيهم أن الشاب يريد ان يرتكب فعلاً محرماً . . فهموا به .. أما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد علم أن الشاب يريد الحلال كما شرع فى الإسلام . . خالصاً لوجه الله بدليل طلبه الإذن بالفعل فالإذن يعنى الإلتزام بالأمر وما كان من المصطفى ﷺ إلا أنه فهم الأمر من خلال الأبعاد النفسية للفتى كما فهم أن صراع الغريزة داخل الفتى يطالبه بذلك .

على أية حال فالفتى أمام رغبة حالت دون تحقيقها الظروف وإلا كان قد حققه بالزواج المباح وهذا هو تحديد رسولنا ﷺ لطبيعة المشكلة النفسية التى يواجهها الفتى ومن أجل ذلك كانت المعالجة تتم فى ذات الإطار

النفسى وبعيداً من مجرد تبيان الحكم الشرعى فسأله ﷺ أترضاه لزوجك ؟ قال لا ، قال كذلك الناس لا يرضونه لزوجاتهم ثم سأله أترضاه لأمك ؟.. وهكذا ....

ولابد أن هذه الاستثارات النفسية قد خلقت فى نفس الفتى المسلم نوعاً من أنواع التعادل الداخلى .

فغريزة ثائرة لا تخمدها إلا مشاعر نفسية أقوى منها أو تعادلها وهكذا أثار المصطفى ﷺ الغيرة الفطرية فى نفس الفتى ليحدث التعادل مع غريزة أخرى بل لقد أثار التساؤلات داخله .

فالإذن له يعنى فى مضمونه الإذن لغيره وإذا تعلق الأمر بالفتى اليوم مع زوجة أو أم أو أخت لغيره ، فقد يتعلق غداً للغير مع أم الفتى وأخته وزوجه .

إذاً فرد المصطفى لم يكن فى بيان الحكم الشرعى وهو ما فعله ﷺ ولكن المنطقى والصحيح هو معالجة النفس التى يجب أن تتلقى الحكم الشرعى فدرجة الإيمان هى الدرجة التى تصل إليها النفس الإنسانية عند منطقة التوحد بين الحكم الشرعى وبين الرغبة النفسية وهو كمال الاتساق والإنسجام النفسى .

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) (1)

وكان ذلك نهج الإسلام حينما سار التنزيل على نهج التدرج فى التشريع كوسيلة من وسائل معاملة الحائط النفسى الصلد والمكون من التقاليد الموروثة والعادات المذمومة ومن رحمة الله بنا أن ينقل التاريخ إلينا

الحديث رواه : عن أبى محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو حديث حسن صحيح رواه النووى فى كتاب الحجه باسناد صحيح .

واقعاً إسلامياً كاملاً عاشت فيه الأحكام الشرعية حياة كاملة . فبين لنا كيف ولدت الأحكام فى رحم يرفضها وفى مجتمع يأباها ويحاربها ثم كيف عالج هذا المنهج تلك القلوب الصخرية فحولها إلى قلوب ألين من الماء تستجيب لحكم الله وتنفذه وهى تحب ذلك فى معالجة نفسية فريدة .

إذاً فهذا هو النموذج الذى يجب أن نقيس عليه الأمور فكما أمكن تطبيقه فى ذلك الواقع يكون فى الأزمان التالية لزمن الدعوة الأولى أو فى الأجيال التالية له أكثر يسراً وأكثر سهولة .

إلا أن هذا الواقع النموذج لم ينقل إلينا الصحيح من الأمر فقط أو كيف يعيش هذا الصحيح بين الناس حتى يرحب الناس به .

إنما هو نموذج يبين لنا أيضاً كيف يقع الخطأ بين الناس .

وما هى الطريقة التى ينبغى أن يستقبل بها المجتمع هذا الخطأ .

فنموذج مجتمع النبوة ليس نموذجاً محصوراً فى بيان قبول الناس للأحكام الشرعية بل هو نموذج أيضاً لبيان خطأ الناس فى استقبالها للخطأ فالمجتمع الصحيح هو المجتمع الذى يخطئ بصورة صحيحة ثم يعالج الخطأ بطريقة صحيحة .

فالصورة الصحيحة للخطأ هى النموذج الذى يجب أن نتدارسه بإعتبار أن الخطأ هو أصل من أصول التكوين الإنسانى .

(كل ابن آدم خطاء) (٢)

فليس من الغريب إذاً أن يخطئ واحد من الناس ولكن المهم أن يخطئ بصورة صحيحة وعلى المجتمع أيضاً أن يتعامل مع وجود الخطأ وأن يتقبله كمظهر طبيعى جداً من مظاهر البشرية وعلامة على صحة بشريتها .

الحديث : أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم .

وفارق كبير بين رفض الخطأ وبين رفض تصور وجوده أو المبالغة فى ذلك الرفض مما يوحى إلى المخطئ بأن جريمته هى الوحيدة فى هذا العالم .

فالنموذج الإسلامى الذى نقل إلينا فى كتب السيرة يعلمنا الفارق الأساسى بين رفض المجتمع للخطأ وبين رفض المجتمع للمخطئ وكذلك بين التعامل مع الخطأ كمظهر طبيعى ودليل كونى على بشرية الفاعل أو بين التعامل معه على إنه أمر مستغرب ، عجيب أن نراه على كوكبنا .

ومن أجل ذلك كان ينبغى دراسة يوميات أحد الصحابة وهو يكتب فيها عن محنته وكيف بدأت وكيف انتهت وما هو موقف الجماعة المسلمة منه لنخلص من ذلك كله إلى نموذج المجتمع الذى يتعامل بصورة صحيحة مع أحد أفراده وقد أخطأ بصورة صحيحة ونبين أيضاً سلبيات التجربة بما يبصر القادة والمجتمعات إلى الأمثل فى التعامل مع خطأ الفرد .

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت . . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . (سورة هود الآية ٨٨)

المؤلف

الباب الأول

(البيان العام للعناصر المؤثرة فى الحالة محل الدراسة)

ورد فى الصحاح ذلك الحديث الذى رواه كعب بن مالك رضى اللّه عنه فى صورة هى أشبه باليوميات والمذكرات الشخصية وهذه المذكرات تروى فى صدق ودقة وصف تلك الحالة النفسية التى مر بها واحد من الصحابة الأبرار إثر شعوره رضى اللّه عنه باللوم الذاتى على خطأ قد ارتكبه فى حق الله وفى حق رسوله ﷺ بأن تخلف عن غزوه غزاها رسول الله ﷺ .

وإذا كنا سنتناول بالبحث أطراف هذه الحادثة وأفرادها فإن ذلك لن يكون إلا من خلال إلقاء الضوء على عناصرها الفرد ، والجماعة ، والقائد .

فالفرد وهو كعب بن مالك أحد أبناء هذه الأمة ومن النفر الذى بايع المصطفى ﷺ فى أيام الدعوة الأولى إذ تعثر لحظة فيتخلف عن غزوة فيأبى إلا أن يلوم نفسه ويقبل بقضاء الله فى محنة طويلة سجلها بنفسه على نفسه .

وأما الجماعة فقد تباينت مواقفها أمام هذه التجربة وأمام هذا الخطأ بل إن الجماعة شكلت طوق الإنقاذ النفسى لهذا الصحابى وإن كادت أن تشكل عكس ذلك فى أوقات أخرى .

وأما القائد فهو المصطفى ﷺ وكان من رحمة الله بنا أن نشاهدآثار رقته ورحمته بالمؤمنين على أكتاف تجربة كتلك التى مر بها كعب بن مالك ومن هنا فإننا سنتحدث عن تلك العناصر والمؤثرات الثلاثة فى إشارة إلى أنها أثرت على مجريات الأمور وشاركت فى تكوينها .

فالفرد: هو المؤثر الأول باعتباره محل الحدث وبطل الرواية وأحداثها

والمجتمع: هو المؤثر الثانى باعتباره الواقع المحيط بالفرد

أما القائد: فهو المؤثر الثالث باعتباره القائد والمربى الرءوف الرحيم ﷺ وتخلص مؤثرات هذه الحالة فى عناصر ثلاثة .

العنصر الأول: ويدور حول الشخصيات التى مرت بها الأحداث وكيفية إستقبالها للمحنة وهو نموذج المخطئ .

العنصر الثانى: إستقبال المجتمع للخطأ وأثره على نفسية المخطئ ،أى نموذج الجماعة .

العنصر الثالث: تعامل القيادة مع الخطأ والمخطئ وهو نموذج القيادة .

والمؤثرات الثلاثة: قد ساهمت بصورة أو بأخرى ، إيجاباً أو سلباً فى الحالة النفسية لصاحب المحنة ، وفى وقت المحنة .

فأثر الخطأ على النفس الإنسانية وهو العنصر الأول ، يتحدد بحجم وطبيعة هذه النفس وليس معنى هذا هو نسبية الخطأ ، وإنما يعنى نسبية تأثر النفس بالخطأ ونظرتها إليه فقد ورد فى الأثر عن **أنس رضى الله عنه**

« إنكم تفعلون أفعالاً ترونها فى أعينكم أدق من الشعرة ، كنا نراها على عهد الرسول ﷺ من الموبقات الملهكات » .

ولكى نوضح الأمر علينا أن نتعرض لخطورة إغفال هذا العنصر ، فالنفس اللوامة تكون عادة قد حملت نفسها من الندم الكثير بدافع من طبيعتها الصحيحة ، وبالقدر الكافى لاستشعارها بالإثم ومن ثم فقد ينحصر دور المجتمع عند هذه الحدود فيبتعد عن محاولة إيقاظ اللوم فى

النفس والذى يكون فى حقيقته أى اللوم فى حالة إستيقاظ شديد ويكون من أمر زيادة هذه الجرعة أو المبالغة فى إيقاظ اللوم ردة عكسية قد تضر ولا تفيد ومن هنا كان ينبغى دراسة طبيعة نفسية المتحن فهى مؤثر أول .

أما المؤثر الثانى: وهو نموذج الجماعة فيتكامل فى أهميته مع المؤثر الثالث وهو نموذج القائد فإما أن تتضامن مع قدراته وتسير على خطواته ونهجه وإما أن تتضارب معه فيغيب التقييم الصحيح للخطأ بل وتقع الجماعة فى أخطاء أشد جسامه وجرائم أكثر فداحه .

من أجل ذلك لم يعتمد الإسلام فى نهجه إلا جهة واحدة لتقضى بين المتخاصمين فيسمعون لحكمها ويلتزمون بها وهى القضاء .

أما المجتمع الذى يجعل من نفسه قاضياً فهو أسوأ أنواع المجتمعات تخلفاً لذلك يأمرهم الإسلام ويطالبهم بالتبين ، كما نهى الناس حتى عن الحكم على الآخرين تزكية أو لوماً .

وينحصر دور المجتمع فى الإسلام فى أمر الإصلاح العام ، والقيام بالدور التكميلى مع القيادة فهو نموذج القيادة ونموذج القيادة فى قصتنا هو المصطفى ﷺ والذى من كمال شريعته أن يظهر النقص معاصراً لحياته ﷺ وأن يظهر الخطأ بين أفراده ذلك لكى يترك لنا ضمن ما تركه ﷺ صحيح التعامل مع الخطأ .

تلك النظرة العلاجية التى لن يفلح أثرها إلا إذا قام بها قلب مشفق على الرعية ، يحبهم ويحبونه وهو نموذج القائد « **وهو المؤثر الثالث** » .

فنظريات الإصلاح الإجتماعية الحالية ربما لن تهتدى إلى أسباب قصورها إلا أن تهتم أكثر بشخص العاملين على تطبيق هذه النظريات .

الخلاصة إذاً : أن عناصر التأثير الثلاثة التى يجب بحثها عند معالجة أى خطأ هى كما يلى :

١ - نموذج الممتحن « المخطئ »

٢ - نموذج المجتمع « الجماعة »

٣ - نموذج القيادة « القائد »

نص الحديث

أخرج البخارى عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : " لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى كنت قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب عنها : إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة [١] حين تواثقنا [١] على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها .

كان من خبرى : أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتها فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً [٢] وعدواً [٣] كثيراً .

فجلى [٤] للمسلمين أمرهم ليتأهبوا [٥] أهبة [٦] غزوهم ، فأخبرهم بوجهة الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ ، يريد الديوان .

---

١ - من البخارى ، وفى البداية : حتى تواثنا (٢ ، ٣) من البخارى ، وفى البداية : عدداً ، عدادا

٤ - كشف وأظهر ٥ - ليتهيأوا ٦ - العدة

قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى [1] له ما لم ينزل فيه وحى الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول فى نفسى : أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى [2] شيئاً فقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ، ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط [3] الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتنى فعلت ، فلم يقدر لى ذلك ، فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً [4] عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ! حبسه برداه ونظره فى عطفية ، فقال معاذ بن جبل ، بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ! ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أنه توجه قافلاً حضرنى همى ، وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لن أخرج منه أبداً بشئ فيه كذب فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً فكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ،

---

١ - من البخارى ، وفى البداية : يستخفى
٢ - ما يحتاج إليه الغازى فى غزوه والمسافر فى سفره
٣ - أى فات وقته
٤ - أى مطعونا فى دينه ، متهما بالنفاق .

ووكل سرائرهم إلى الله عز وجل ، فجئته : فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى ، إني والله ! لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً [1] ولكني والله ! لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد [2] علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله .

لا والله ! ما كان لي من عذر ، ووالله ! ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك ، فقمت ، وسار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي : والله ! ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون ، وقد كان كافيك ذنبك إستغفار رسول الله ﷺ فوالله ! ما زالوا يؤنبونني [3] حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت : وقيل لهم : مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمري ، وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوه ، فمضيت حين ذكروهما ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض ، فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا [4] وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت

١ - مقابلة الحجة بالحجة
٢ - تغضب علي
٣ - يلومونني
٤ - خضوعاً وذلاً

أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، وأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه فأسارقه [١] النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل الىّ ، وإذا إلتفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال على ذلك من جفوة [٢] الناس مشيت حتى تسورت جدار أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ! ما رد على السلام ، فقلت : يا أبا قتادة ! أنشدك بالله ! هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت له فنشدته ، فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت [٣] الجدار ، قال : وبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطىٌ من أنباط أهل الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى ، دفع إلى كتاباً من ملك غسان فى سرقة [٤] من حرير ، فإذا فيه :

" أما بعد ! فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك "

فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت [٥] بها التنور فسجرته [٦] بها ، فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى فقال : إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك فقلت لأمراتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

---

١ - أى أنظر اليه اختلاساً بحيث لا يشعر
٢ - الغلظ فى المعاشرة
٣ - صعدت عليه
٤ - قطعة من جيد الحرير
٥ - فقصدت
٦ - أدخلتها فى التنور

قال كعب : فجاءت إمرأة هلال بن أمية إلى رسول الله فقالت : يا رسول الله ! إن هلال بن أمية شيخ ضائع ، ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك قالت : إنه والله ! ما به حركة إلى شئ والله ! ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما استأذن هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله ! لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدرينى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ؟ قال : فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله عز وجل قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى [1] على جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب ! أبشر ! فخررت [2] ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج ، وأذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبى مبشرون ، وركض رجل إلى راكباً فرساً ، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىَّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ! ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنئونى بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ جالس ، حوله الناس ، فقام إلىَّ طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يهرول [3] حتى صافحنى وهنأنى ، والله ! ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ ، وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم

---

(١) أشرف (٢) اشرقت (٣) يسرع فى مشيه

مر عليك منذ ولدتك أمك : قال فقلت : امن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله ، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار [1] وجهه حتى كأنه قطعة قمر : وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقه إلى الله وإلى رسوله . قال رسول ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . قلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر ، وقلت : يا رسول الله ﷺ إن الله إنما نجانى بالصدقه ، وإن من توبتى ألا أتحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فو الله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى ، وما شهدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذباً ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت ، وأنزل الله على الرسول ﷺ « **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار إلى قوله وكونوا مع الصادقين** »

فوالله ! ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا : فان الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، قال الله تعالى « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، إلى قوله -- فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال كعب وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا ليس الذى ذكر الله مماخلفنا من الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منهم [*] .

---

(١) اضاءة .

(*) وهكذا رواه مسلم وابن إسحاق ، ورواه الإمام أحمد بزيادات يسيرة فى البداية (ج ٥ص ٢٣) ، وأخرجه أيضا أبو داود ، والنسائى بنحوه مفرقا مختصرا ، روى الترمذى قطعة من أوله ، ثم قال : وذكر الحديث - كذا فى الترغيب (ج ٤ ص ٣٦٦) وأخرجه البيهقى (ج ٤ ص ٣٣) بطوله .

الفصل الأول

نموذج المخطئ (الفرد)

والممتحن هو الذى يمر بمحنة أو دائرة ضيقة يسعى للخلاص منها والمعنى يشير إلى الإختبار بصورة أقرب وصعوبة البلاء تأتى بقدر حساسية النفوس ومن هنا كان لزاماً علينا قبل أن نتعرض للرواية وألفاظها أن نتعرض إلى بطلها وصاحبها أولاً وقبل كل شئ بالدراسة النفسية الشاملة لهذه الشخصية .

وإذا كانت القصة تتلخص فى حدث وحيد وهوتخلف «كعب بن مالك» رضى الله عنه عن غزوة تبوك إلا أن هذا الحدث ما كان ليأخذ حقه فى الرواية والتحليل والنقل والإهتمام التاريخى لولا الإعتبار الشخصى المتمثل فى صاحب الرواية وبطل الأحداث وهو شخص « كعب بن مالك » .

فتبوك لم تكن الغزوة الوحيدة التى تخلف عنها نفر من المسلمين ولم يكن كعب بن مالك هو المتخلف الوحيد عن غزوة تبوك كذلك .

إلا أن ماهية الشخص تضفى بظلالها على الحدث كما أن أثر الحدث على النفس يختلف من إنسان إلى آخر .

ومن هنا فإن كعب بن مالك هو الصحابى الذى بايع الرسول ﷺ فى ليلة العقبة وهو من الذين حملوا الدعوة الإسلامية فى مهدها وهو من هو وكان لهذا الإعتبار الشخصى والمتمثل فى شخصية كعب بن مالك أثره الكبير فى نشأة محنته النفسية بهذا القدر من الجسامة .

فخطأ الرموز الإسلامية والعلامات البارزة على طريق الدعوة ليس كخطإ العوام من المسلمين فالقيادة عند الناس قد تكون وجاهة وعصمة

وحصانة وفقاً لمعايير الأرض البشرية أما القيادة فى الإسلام فهى تضيف مزيداً من الإبتلاء ومزيداً من العناء ومزيداً من الإعداد فهذا ربنا تبارك وتعالى يخاطب نساء النبى ﷺ : « **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً** » الآية ٣٢ من سورة الأحزاب .

كما إنك تجد أن قيام الليل واجب على النبى ﷺ نافلة للمسلمين

« **يا أيها المزمل .. قم الليل إلا قليلاً** » الآية ١ ، ٢ من سورة المزمل

(**يا أيها المدثر .. قم فأنذر**) الآية ١ . ٢ من سورة المدثر

وكذلك تحريم النساء على النبى بمقتضى الآية :

(**لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شئ رقيبا**) .

سورة الأحزاب الآية ٥٢

ومن هنا فإن الإعتبار الشخصى سيطل علينا برأسه فى بيان النقاط التالية والتى سنقصرها على النظرة داخل النفس عملاً بمنهج البحث وهى :

أولاً : الحب الذى يكنه كعب بن مالك لرسول الله ﷺ والذى أضاف إلى رصيد الألم النفسى رصيداً مضاعفاً .

ثانياً : مكانة الرجل بين أهله وموقعه فى الدعوة قد ضاعف من لوم النفس وآلامها .

أولاً : أثر حب القيادة على نفس كعب بن مالك

لم يكن ما يعانيه كعب بن مالك إلا شعوراً مركباً من الألم والحزن والندم والإنكسار وقد أضاف إلى ما سبق ذلك الخط الوجدانى البديع الذى يربط بينه وبين رسول الله ﷺ مزيداً من عمق هذه المشاعر وقوتها حتى طمأنهم بقوله (**يحشر المرء مع من أحب**) .

هذا هو حب الصحابة للنبى وهو حب وصل إلى قمته ثم يتفاوت بعد القمة بينهم ويتجلى هذا الحب فى ألفاظ الرواية من وجهين فأما الوجه الأول فيكشفه ذلك الطغيان الشعورى الذى يجعل اسم النبى سابقاً على الحدث دائماً فى ألفاظ الرواية وأما الوجه الثانى فهو روعة وشاعرية وصف كعب بن مالك للمواقف المشتركة بينه وبين الرسول ﷺ .

الوجه الأول : اسم النبى دائماً قبل الحدث

وكعب بن مالك قد تخطى قمة الحب بدرجات عديدة ونلحظ ذلك من خلال عبارات يومياته وكيف يسبق اسم النبى أى حدث يرويه كعب فى رواياته .

(لم اتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها)

ويلحظ القارئ ما يسميه بعض علماء النفس « بالطغيان الشعورى » والذى يتجلى فى ألفاظ اليوميات وهى تفرض نفسها فى لغة الخطاب إذ يقول : **(لم أتخلف عن رسول الله)** .

فالتخلف كما بدا فى الألفاظ كان عن رسول الله ﷺ قبل أن يكون عن الغزوة بينما قد يكون للجملة تركيب أخر لم يذكره الصحابى ولم تذكره الرواية كأن يقول : **(لم أتخلف عن غزوة غزاها رسول الله)** .

إن هذا التقديم لإسم الرسول هو ما يسمى « بالطغيان الشعورى » الذى يطرح نفسه على كلمات الإنسان عند التلقائية فتكون الكلمات إنعكاساً لما يدور داخله من مشاعر فياضة أو طاغية حتى حينما تتكرر العبارات وتبتعد الألفاظ بعضها عن بعض لا يختلف ترتيبها الوجدانى أبدا وكأن الرباط العاطفى هو الحبل الذى يربط بين أطرافها جميعاً فبعد أن حكى قليلاً فى اليوميات الخالدة عاد إلى ذكر تخلفه عن الغزوة بذات الترتيب النفسى .

« كان من خبرى : أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة » .

ومرة أخرى يظهر أثر ذلك الحب فى قوله حين تخلفت عنه وكأن أمر التخلف عن النبى يطل بجسامته مرادفاً ومصاحباً وسابقاً فى مفرداته عن التخلف عن الغزوة فالتخلف عن غزوة هو أمر مؤلم لأصحاب القلوب المؤمنة ولكن التخلف عن غزوة قائدها رسول الله ﷺ فإنه الألم عينه وعين الألم وانظر معى أيضاً إلى ذلك الطغيان الشعورى على ذات النسق السابق :

« وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال »

ثم أنظر معى أيضاً إلى تلك المنظومة اللفظية التى لا تختل ولا تختلف ويظهر فيها اسم القائد ﷺ فى مقدمة الحدث . . أى حدث :

(وتجهز رسول الله والمسلمون معه)

(فاصبح رسول الله والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً)

(فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم ، أحزننى ألا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق)

(فلما بلغنى أنه توجه قافلاً حضرنى همى وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً . . ؟)

وكذلك **(فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنى الباطل)** إذن فكل ما مر من ألفاظ كاشفة إنما هى تعبير صادق عن حالة الطوفان العاطفى يكتشفه الباحث من خلال التقديم والتأخير فى استخدام الألفاظ فاسم الرسول هو المقدم على الغزوة فى كل ألفاظ وتركيبات الرواية وهو المقدم على أى حدث . .

الوجه الثانى : روعة وشاعرية المواقف المشتركة

ولكن ثمة مباشرة فى التعبير تصل به إلى أسمى درجات صدق الانفعال الوجدانى فانظر معى إلى ذلك التفصيل المشحون بالشجن .. رغم أنه يتعرض لوصف موقف واقعى محدد وهو اللقاء مع الحبيب ﷺ ولقاء الحبيب هو قمة الإنفعال والعاطفة وهى عاطفة مؤرقة فى ذات الوقت إذا اشتملها الألم فتنضح بها الألفاظ ويشهد بها الفكر ويعيش الإنسان معها أشد حالات الأرق ويظهر كل ذلك واضحاً من خلال اللفظ البشرى فى تلك اليوميات وهى تضيف على لسان صاحبها عند أول لقاء بعد إستحكام الشعور الذاتى بالخلأ عند النفس البشرية مع الحبيب المصطفى ﷺ .

(فجئته : فلما سلمت عليه تبَسَمَ تبَسَمَ المغضب ثم قال تعال . . فجئت أمشى حتى جلست بين يديه)

إن الألفاظ تنطق بالشجن والألم الشعورى الممزوج بالمحبة فى مزيج واحد يدلل عليه تفصيل الوصف واستخدام التعبيرات . « **كتبَسَمَ المغضب** » « **وجلست بين يديه** » .

وهذا المزيج الرائع يتضح فى التفصيل الوصفى فما كان يغنى عنه لفظ واحد عبر عنه الصحابى الرقيق فى أكثر من عشرين كلمة واصفاً حبيبه وهو يقول مثلاً: « **تبَسَمَ تبَسَمَ المغضب ، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه** »

إلا أن الإنسان ليعجب من هذه العاطفة الرائعة السامية ومن تلك الأنفس التى وصلت فى أمر محبتها لقائدها ﷺ إلى هذه الدرجة العالية من الفيضان النفسى وانظر معى إلى هذا المشهد الرقيق لصاحب اليوميات وهو يقاوم الواقع ويذهب ليشهد الصلاة مع المسلمين وذلك لما يرمى إليه من مقاصد كان أقواها أن يشاهد حبيبه المصطفى ﷺ ولم تكن تلك المشاهدة كأى مشاهده ولكن تأمل معى فى هذا التعبير الرائع وهو يحكى عن رؤية

حبيبه ﷺ أثناء فترة صدور الأمر للناس بمقاطعة كعب بن مالك صاحب اليوميات .

« فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة وأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى وإذا التفت نحوه أعرض عنى » .

ولن يجد القارئ أروع ولا أسمى من هذه المشاعر فهاهما الحبيبان يخاطف كل منهما النظر إلى حبيبه خلسة .

فالقائد الذى يربى يمنع من أجل الإصلاح وينفطر قلبه لتأذى حبيبه كالوالد الحانى الذى يحتجز عن صغيره وحبيبه ضرراً وينفطر قلبه لبكاء الصغير فى ذات الوقت عند تناول الدواء فكان الصحابى ينظر إلى الرسول ﷺ أيضاً وكان يعيش دوامة العذاب المستمرة والتساؤل المضنى لجوانب العاطفة سائلاً نفسه عما إذا كان المصطفى ﷺ قد حرك شفتيه برد السلام أم لا وهل ينظر إليه أم لا .. ؟

أنها إختلاجات الحب ... تلك التى تجعل الحبيبين يتخاطفان النظر كل منهما إلى حبيبه فتدفع الصحابى إلى أن يصلى قريباً من الحبيب المصطفى وينظر إليه إختلاساً دون أن يشعر النبى فلا ينظر إليه الحبيب المصطفى إلا بعد أن يدخل الصحابى فى صلاته فيبادله النبى ﷺ حبا بحب وكأنه لا يريد أن يظهر الوجه الشديد وإنما يريد أن يعطيه جرعات الدواء بشدة مفتعلة ثم يتجلى أخيراً ذلك الجانب النفسى الرائع فى نهاية اليوميات حينما يمنّ الله على كعب بالتوبة وتأتيه البشارة فيذهب إلى حضن الحبيب ولا اعتقد أنه ذهب ليسأله ذلك السؤال الذى أورده فى يومياته .

وإنما كان ذهابه إلى النبى كما ينكشف جلياً من عبارات اليوميات وألفاظها ليطفئ الصحابى نار الشوق التى اندلعت بين جوانحه واستمرت لخمسين ليلة حتى كادت أن تقضى عليه ، هذا الشوق الذى حمله للرسول ﷺ والذى كان يحاول أن يهدئ من لهيبه بأن يذهب ليصلى بالقرب منه ﷺ أو أن يسارقه النظر أو أن يلقى عليه السلام على أمل سماع صوته ﷺ إلا أن شيئاً من ذلك لم يسعفه إلى أن منَّ الله عليه بالتوبة فسارع إلى النبى حتى ينقذ روحه بالنظر إلى الحبيب ويروى عطشه بالحديث إلى قائده وحبيبه ﷺ .

وتظهر هذه العاطفة الجياشة عند اللقاء فى تلك الكلمات التى سطرها كاتب اليوميات **(وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر)**

فهل رأيتم وصفاً أجمل وأروع من ذلك الوصف لوجه الحبيب المصطفى عليه السلام نعم إنها لغة المتحابين ووصف المتحابين .

وكانت المحبة هى التى عززت وصعبت من عنف الإبتلاء على نفس النموذج الإسلامى الرائع كعب بن مالك .

ثانياً : مكانة الرجل بين أهله

فضلاً عن سبقه فى الدعوى

يضاعف من لوم النفس وآلامها

لا تقاس الأخطاء بصورة مجردة عن واقعها على الأقل من حيث آثارها على النفس وطرق علاجها فالخطأ باعتباره هو سلوك إرادى يرتبط بنفس إنسانية هى التى ارتكبته عن وعى وإدارك كما أنه يرتبط بمحيط واقعى

يجسم أو يقلل من حجمه حسب الأحوال فليس من المتصور أن تكون للأخطاء قوالب ثابتة لقياسها سواء من حيث جسامتها أم من حيث أثرها العام الإجتماعى .

ولكن لقياس الخطأ وجه يأتى عند النظر إلى أمر العلاج ذلك أن علم العقاب يقتضى دراسة النفس الإنسانية ، ومدى حاجتها إلى الردع أو الزجر « **كما يقول الشاعر : العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة ، أو تكفيه الإشارة** » .

ومن هنا فإن دراسة النموذج الإسلامى الرائع للصحابى كعب بن مالك هو دراسة لازمة لمعرفة أثر العقاب وحدوده وأسلوبه على النفس البشرية بحسب طبيعتها ويتجلى ذلك فى كعب بن مالك وهو النموذج محل الدراسة فى أمرين :

أولاهما : الألم من لوم الذات أو الندم .

ثانيهما : المبالغة فى الإعتراف بالخطأ .

١ - الألم من لوم الذات أو الندم

وهذه المظاهر قد ارتبطت ارتباطاً لا يقبل الفصل أو القسمة فالألم الشديد هو الذى أدى إلى مزيد من عقاب الذات وكان أن قام على أكتاف ذلك ، المبالغة فى الإعتراف بالخطأ فالإعتراف بالخطأ دائماً يكون مصدره الشعور بالألم الذى يحدثه الخطأ داخل النفس الصحيحة وإن دقة الإعتراف وحدته تأتى من خلال الشعور الشديد بالإثم وكلما ازداد ذلك الشعور كلما إزدادت الرغبة فى الإعتراف وهو ما جعل فقهاء القانون الجنائى يتجهون إلى الإعتراف كعنصر مخفف من العقاب ليس لكونه أسلوب كشف للجريمة فحسب وإنما لكونه أيضاً هو التعبير عن حالة الإستواء داخل النفس البشرية

كما أن الشريعة قد علمت حاجة النفس السوية إلى الإعتراف وسعيها إليه فأحاطت الإعتراف بضمانات تقيه الإكراه أو الإجبار أو حتى الإغراء وكان ﷺ يناقش المقر حول إقراره وحول ما دفعه إليه وعلى هذا المعنى تواترت الأحاديث .

إذاً فكلما كانت الفطرة في حال نقاء وسوية كلما كانت أقرب إلى الإعتراف بالخطأ وكلما كانت أشد تألماً وكلما كانت أشد شعوراً بالذنب أيضاً .

والنفس التي على الفطرة السوية هي التي تخطئ والنفس التي على الفطرة السوية أيضاً هي التي تلوم نفسها عند الخطأ وتحاسبها فقد أقسم الله بيوم الحساب وبالنفس التي تحاسب صاحبها وتلومه (**لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة**) سورة القيامة ١ ، ٢ .

وإذا كانت القيامة هي يوم الحساب والنفس اللوامة هي المحاسبة لنفسها فإن الأمر ليجسد عظمة النفس السوية عند ربها .

ونفسية كعب كما سبق القول هي أكثر النفوس إتساقاً مع الفطرة فكانت من أكثر النفوس لوماً لنفسها ومن أكثر النفوس تألما لذنبها ومن أكثر النفوس إعترافاً بخطئها فانظر معي إلى ألفاظه في يومياته وهو يتحدث عن الألم (**فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا بينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته يا كعب أبشر فخررت ساجداً وعرفت أنه فرج) .**

وهذا تعبير دقيق يشهد به صاحب الحالة النفسية على أن القرآن وهو قول الله الحق قد وصف حالة كعب بما لا يستطيع هو أن يصف نفسه بأدق منها ذلك أن الله عليم بذات الصدور .

والألفاظ التى وصف بها القرآن حال كعب ومن تخلفوا معه إنما وصفت أعماقهم ودواخلهم وصفاً دقيقاً فلم يكن كعب يشعر بفسحة الكون رغم إتساعه أمامه بل كان يشعر بالسجن الكئيب وبالأنفاس التى لا تتمكن من إختراق صدره من فرط ضيقه إنها الكناية الرائعة التى عبر فيها الصحابى عن نفسه فهو يشعر بألم ما كان ليتحمله بشر لولا الأمل فى توبة الله عليه ومن جانب آخر يظهر أمام القارئ معاناة كعب عند التقاء اللونين الأبيض والأسود أى المعاناة والبشرى والإخفاق والفرح .

فالناس لا يتسارعون بالبشرى إلا إذا شعروا بقيمتها عند المبشر بها بل إنهم يتنافسون عساهم أن يكونوا أول من يبشر بها كلما ازدادت قيمتها عند صاحبها إن هذا التسابق بين الصحابة على نقل البشرى إلى كعب إنما كان سببه الأساسى هو شعور عموم المسلمين بحالة الألم التى يعانى منها كعب ومعرفتهم يقينا بمدى الفرحة التى ستغمره عندما تبلغه البشرى مما ترتب عليه أن يصيح أحدهم من على جبل عال .

(سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع ، يقول يا كعب أبشر)

وفى موضع آخر **(وركض رجل إلىّ راكبا فرسا)**

ثم فى موضع آخر **(وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس)** .

ثم فى موضع رابع **(فذهب الناس يبشروننا)**

وإذا كنا سنتناول هذا العمل الجماعى الرائع والشعور الإجتماعى الفريد فيما بعد حين نتناول نموذج المجتمع أو الجماعة إلا أننا أخذنا منه فى هذا الموضع ما يشير إلى شدة الألم التى شعر بها الصحابى الجليل والتى فاضت منه حتى عمت على الجماعة بأسرها ألماً وضيقاً لحاله وتم عكس ذلك حينما عم شعور الفرح فعم الجماعة .

٢ - المبالغة فى الإعتراف

وإذا كان الإعتراف هو وسيلة النفس السوية لإزالة الأثقال عن كاهلها فإن الإعتراف بذلك هو وسيلة الحكم الصحيح على النفس الإنسانية أيضاً فكلما اختلت الفطرة فى داخل النفس أو ضاعت سلامتها ، كلما اقترب الإنسان من الاستهانة بالإثم ، حتى يصل إلى درجة التلذذ بارتكاب الخطأ وهى أشد صور الضياع الفطرى والتشوه النفسى وعلى العكس من ذلك فإن الإنسان كلما اتفقت فطرته مع السوية التى خلق الله الناس عليها كلما آلمها الخطأ واستبد بها الشعور بالندم .

ولعله من نافلة القول أن نكرر دائماً قولنا : إن معنى الفطرة السليمة ليس هو الإبتعاد عن الخطأ إنما تعنى سوية الفطرة أول وآخر ما تعنى هو مجرد الشعور بالخطأ عند الخطأ والإعتراف به (**ولا أقسم بالنفس اللوامة**)
(سورة القيامة ٢)

وبهذين العنصرين يتكون طرفا المقص فلا توجد نفس بشرية لا ترتكب الخطأ وإلا لذهب الله بنا وأتى بقوم آخرين كما ورد فى الحديث .

كما أنه لا توجد نفس سوية لا تشعر بالخطأ فالنفس التى لا تشعر بالخطأ هى النفس التى ابتعدت عن السوية بمقدار بعيد حتى انحرفت بالكلية فأصبحت لا تشعر بالإثم وهى النفس التى استخدم معها القرآن لفظ (**لا يشعرون**) فى كل موضع من مواضع القرآن .

(**ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون**) (سورة البقرة الآية ١٢) .

وبناء على ما سبق فإن الإعتراف بالخطأ هو سمة النفس السوية وتبدأ هذه الخصلة الجيدة بمجرد الشعور بالذنب والرغبة فى الإعتراف وتصل إلى قمتها بكامل الإعتراف بالخطأ .

ولكن ثمة نفوس هى الأعلى والأسمى فى تاريخ البشرية ذلك أنها تحمل فوق صدرها عند الخطأ أكثر من مجرد الإعتراف وهو الإعتراف المشفوع بتأنيب النفس والمخلوط بعبارات الندم فيؤدى ذلك إلى مزيج متجاوز وهو المبالغة فى الإعتراف .

والمبالغة فى الإعتراف لا يتمتع بها إلا أصحاب الفطرة السوية ، والسوية لا تكون إلا على النموذج الإسلامى الفريد كعب بن مالك .

فلم يكن غريباً أن تشهد اليوميات بمدى سلامة الفطرة لكعب بن مالك رضى الله عنه ذلك أن المبالغة فى الإعتراف هى دليل على استواء الفطرة فى أعلى درجاتها وللقارئ أن يلمح هذا الإستواء والمعبر عنه بالمبالغة فى الإعتراف من أكثر من وجهة .

أولها : إبعاد الظروف المخففة بفعل المقر وهو ما لا يفعله المرء فى مثل هذا الموضع عادة .

ثانيها :إستخدام القسم للتدليل على صحة الإعتراف . . وهو ما لا يطلب فى هذا الموضع عادة .

ثالثها : تكرار الإعتراف ..... وهو ما يستغرب فى مثل هذا الموضع عادة .

أولا : إبعاد الظروف المخففة .. بفعل المقر

إذا كان الإعتراف من سمات النفس السوية حال إعتدالها فإنه لم يكن أبداً مصحوباً بتطوع المبالغة في إدانة النفس أو إبعاد الأعذار عنها بفعل المعترف فبلغة أهل القانون قد يعترف مرتكب الخطأ ولكنه فى نفس الوقت سوف يذهب إلى إستعراض الظروف التى ألجأته إلى الخطأ ولكن أن يعمد المقر إلى إستبعاد الظروف المخففة بنفسه . عن نفسه فإن ذلك ليكشف لنا مدى إيلام الذات وقوة الشعور بالذنب وهذا هو الغريب فى الأمر .

ويتجلى ذلك العقاب الفريد الذى يوقعه المرء على نفسه فى يوميات الصحابى الجليل حينما يعمد إلى إحاطة نفسه بدرع يمنع الغير من تقديم يد العون له ولو بالتماس عذر لتخفيف الخطأ ومن هنا فإنه رضى الله عنه فى يومياته يقول : **(كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة)**

وكان من الممكن أن ترد ألفاظ الإقرار على غير هذا النحو كأن يكتفى بذكر حاله دون استخدام أفعل التفضيل فيذكر أنه كان قوياً مثلاً وكان يسيراً إلا أن الصحابى كان يكرر أنه لم يكن أيسر .. ولا أفضل .

ثانيا : استخدام القسم

والمبالغة فى الإعتراف تتجلى حينما يلجأ المعترف إلى إستخدام القسم وهو أمر لا يطلب منه حسب طبيعة الإعتراف كعمل إرادى يقر به المرء على نفسه .

إلا أن القارئ ليلحظ هذا الإيلام النفسى الشديد حينما يقرأ القسم فى مقدمة كل عبارة من عبارات الإعتراف .

(والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة)

وكذلك قوله عند مقابلة حبيبه ﷺ : « **ثم قال تعال .. فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر . . ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على .. والله ما كان لى من عذر .. والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك** » .

وإذا نظرت إلى تكرار القسم .. علمت مدى شدة الألم .

ذلك أن النفس السامية هى التى تقر بما فعلت . . والنفس الأكثر سمواً ورفعة هى التى تقسم على صحة إقرارها ويكون هذا القسم نابعاً من إحساسها بالذنب والخطأ .

ثالثها : تكرار الإعتراف

ويستوى تكرار الإعتراف مع القسم من حيث قيمة العرض والمظهر الخارجى للحالة النفسية وشدته إلا أن التكرار يأتى كمظهر من مظاهر مضاعفة لوم النفس فانظر له وهو يصدر روايته بالإعتراف بالخطأ إذ يقول فى أول عبارة فى اليوميات (**كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة والله ما اجتمعت عندى راحلتان**) .

وهذا الإفتتاح لليوميات يأتى على غير موضعه المعتاد . . إذ أن السياق الطبيعى للرواية أن تبدأ بالأحداث تم تنتهى بعرض الخطأ ، إلا أن الصحابى بدأ القصة بما ألح على نفسه من عذاب وإيلام . . فتكرر منه الإعتراف فى كل موضع .. وكان أول المواضع افتتاح القصة . . وكان لسان حاله يخاطب من يقرأ أن يتجه إلى القسوة فى الحكم عليه ولا يلتمس له عذراً .

إن على الدعاة أن يتقبلوا أمر الخطأ كواقع طبيعى وعليهم أن يتابعوا نفس المخطئ فهى يجب أن تكون من النموذج الإسلامى الصحيح فى إحدى درجاته والتى تبدأ من الرغبة فى الإعتراف مروراً بالإعتراف الصحيح وإنتهاءً بالنموذج الرائع الذى يبالغ فى إعترافه قصاصاً من نفسه وإتساقاً مع الميزان الصحيح للأمور وهنا يجب تقدير هذه النفس السوية . . وعلى الدعاة أيضاً أن يعلموا أن علاج أبناء الدعوة لا ينبغى إن يتم إلا بمشرط حكيم . . يستأصل جانب الخطأ ولا يجور على الإيجابيات فيقلل منها . . إنها مسألة لا تحتاج إلى العلم فحسب وانما تحتاج إلى الحكمة أيضاً .

الفصل الثانى

الجماعة المسلمة

تتحمل الجماعة المسلمة أكبر الأعباء فى عملية التصحيح الإجتماعى . أو الإرتقاء بنظرة الفرد إلى الأمور . . وهى التى تكمل دور القيادة فيما تتخذه من قرارات علاجية . . وهى التى تصوغ نظرة المجتمع للخطأ . . بصفة عامة ، بل إن استقبالها للخطأ محكوم بقانون التربية الإصلاحى . . كما أن استقبالها للصواب والصفات الحميدة محكوم أيضاً بهذا القانون .

فهى مسئولية على كل حال تتحمل وزرها وتحصد أجرها ولا ينبغى أن تتعامل مع الفرد بنظرة ظالمة . . وليس للجماعة المسلمة أن تترك نفسها عرضه لشهوة اللوم والتأنيب للمخطئ . . كما أنه ليس لها ان تدعى السمو والعصمة فتنظر إليه نظرة تعال وإحتقار وليس لها أيضاً أن تجعل من نفسها قاضياً يحكم ثم جلاداً ينفذ ، وهذا أمر غير مقبول على الإطلاق وفقاً للمفاهيم الشرعية الصحية فنظرة الجماعة إلى الفرد الخاطئ إما أن تدمره وإما أن تساعده على علاج كبوته والأخذ بيده إلى الأفضل بعد النهوض به من تلك الكبوة .

وفى المقابل فليس للجماعة المسلمة أن تساعد المخطئ على الخطأ . . أو تتقرب إليه تحت ستار الحب والشفقة على حساب الفهم الصحيح لأسلوب المعالجة لكونه من عموم الناس أو من سادتهم .

وفى النهاية فإن الجماعة المسلمة يحب أن تتمتع بالحساسية اللازمة فى مواجهة هذا الأمر لاسيما إذا كان صاحب الخطأ قد ابتلى بالإيلام والتقريع النفسى ، وخاصة إذا كان هذا الشخص من القيادات صاحبه السبق التى تبالغ فى لوم نفسها إنطلاقاً من سمو إيمانها .. إن نظرة الجماعة المسلمة إلى

الخطأ وتصرفها مع المخطئ لا ينبغى أن تكون ثابتة أو موحدة تحت شعار العدالة بين الأفراد . . إن هذا الثبات المزعوم لا يمت للعدالة بصلة . . بل هو إلى الظلم أقرب فالمساواة بين المختلفين ظلم كما أن التفرقة بين المتساوين ظلم أيضاً .

فالفارق كبير بين القانون وهو القاعدة العامة المجردة . . والجامدة فى نفس الوقت وبين الحركة الجماعية التى يجب أن تتسم بالمرونة والإختلاف . حسب الحالة والشخص .

فحركة القانون هى حركة الحكم العام انطلاقاً من فلسفة المجتمع أما حركة الجماعة المسلمة فهى حركة التقدير الشخصى للفرد والميزان الملامس لحالته . ومن ثم احتضانه ومعالجته بجرعات محسوبة تختلف من شخص إلى شخص ولنفس الشخص من حالة إلى حالة فهى حركة الفتوى المستنبطة من الحكم العام .

وإن يوميات الصحابى الجليل كعب بن مالك تعاملت مع الجماعة من حيث الموقف بالتر .يز والبيان فى أكثر من موضع . . لكنها كانت أكثر بياناً عند مواقف الخطأ الجماعى . . ولم لا . . والنفس الإنسانية لا تحتاج فى محنتها إلى أخطاء إحتماعية تضيف عليها الأعباء وتقتل فيها الإحتمال إنها تحتاج إلى جماعة صحيحة واعية .

يجيب على هذه الإستفامهات الصحابى الجليل صاحب اليوميات كعب بن مالك ويلقى على الجماعة المسلمة درسه العظيم الذى وعاه من الإبتلاء الذى مر به .

إنه يعلم الجماعة المسلمة ألا تسوى بين أنواع الإبتلاء فى المعالجة أو المعاملة . . كما أنها لا يجب أن تسوى بين الأفراد المبتلين كما أنها أخيراً لا

يجب أن تتغافل عن ظروف ودوافع كل حدث حينما تضع له المعالجة اللازمة إنه أيضاً يعلم الجماعة المسلمة درساً فى السلوك العام الإجتماعى والذى يجب أن يكون أكثر حساسية وهو يتعامل مع المذنبين من أبناء الحركة الإسلامية وحتى نعى هذه الدروس جميعاً فإننا لابد وأن ننتقل إلى مسرح الأحداث وننقل مواقف الجماعة مع الفرد فى هذه الرواية وهى قد تصل إلى مواقف أربعة فى اليوميات كلها . . إلا أنها قد طبعت فى نفس الصحابى الجليل طباعة لا تزول أبداً . . فما كان منها على وجه الصواب سيترك بسمة على وجهه رضى الله عنه . . وما كان منها على وجه الخطأ . . سيظل يذكره ولو صفحت عنه نفسه . . وأهمية هذه المواقف الأربعة للجماعة المسلمة تأتى من خلال نفسية المبتلى أياً كان نوع الإبتلاء فهى نفسية لينة جداً . . ورقيقة جداً وشديدة الحساسية ... كذلك .

وإن كان من اللازم أن نلقى الضوء على المواقف الأربعة فإنه من الألزم أن نشير إلى أثر كل موقف على نفسية صاحب اليوميات .

الموقف الأول :

« دفاع إجتماعى صحيح وواجب فى مواجهة الغيبة والبهتان »

يقول صاحب اليوميات : « **ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب ؟ فقال رجل من بنى سلمة يا رسول الله حبسه برداه ونظره فى عطفيه . . فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً** » .

والموقف الأول ينطق بالإشارات التى لا تغيب عن الفطناء أبداً . . وخلاصة الأمر أن رجلاً من بنى سلمة أساء إلى غيبة الصحابى الجليل حينما سأل عنه رسول الله ﷺ .

وفى المقابل فإن معاذ بن جبل قد تصدى للأمر ودافع عن صاحب اليوميات بالألفاظ التى سبق ذكرها .

ومن هنا فإن الجماعة إن صمتت عن فعل خاطئ كالقذف أو السب أو الغيبة أو البهتان فإن خطأها يكون أفدح من القاذف أو الساب .

إن المجنى عليه سيظل يذكر أبداً للجماعة المسلمة أنها صمتت بينما نهش الآخرون فى لحمه . . مما قد يؤثر ذلك على النسيج الواحد للمجتمع .

ومن هنا فإن ما قام به معاذ بن جبل رضى الله عنه إنما هو إنقاذ للجماعة المسلمة من أن تقع فى جريمة المشاركة بالسكوت.والصمت المخزى .

إن الإستماع إلى الطعن أو التجريح مع الإنصات إلى ذلك إنما هو شهوة عند ضعاف النفوس .

والمنصتون الصامتون ربما لا يقومون بذلك الفعل البغيض (أى الغيبة) بأنفسهم إنما هم يتلذذون بالحط من شأن الآخرين لاسيما وإذا كان الآخرون يتميزون بالصفات الجالبة للنظر والمثيرة للإعجاب .

ترى ما الذى دفع هذا الرجل من بنى سلمة إلى أن يحكم حكمه على الصحابى الجليل فى لحظة دون تحقيق أو بحث أو تحرٍ ودون أن يطلب منه ذلك وحتى إن حسنت نيته فقد ساء لفظه .

ثم إن التعبير الذى استخدمه الرجل الذى أتى من بنى سلمة كان شديد التهكم . . وهو ما يؤكد أنها ليست إجابة عن سؤال المصطفى ﷺ وإنما هى إفراغ لما فى نفسه من حالة (**حبسه برداه ونظره فى عطفيه**) . فمن أجل ذلك فإن علينا أن نتصور . . إمكانية وجود مثل هذه النماذج التى قد يضيق صدرها بتفرد الآخرين فتنهال عليهم بعبارات قاتلة . . وهذه العبارات لن تذكر إلا فى غيبة الضحية . . بالقطع .

وهذه النماذج قد توجد فى مجتمع الصحابة والتابعين كما توجد فى أى من المجتمعات ، ولكننا لا يمكن أن نتصور أن تقف الجماعة المسلمة أمام هذا الفعل موقف الصامت ذلك أن صمتها أشد أثراً وأكثر خطراً من الفعل المؤثم . . لاسيما وأن ظهور هذه الصفات المرفوضة فى مجتمع الصحابة إنما هو ظهور بيان وعلم .

إن هذا النوع من الإساءة لن يزيد فى حجمه عن خطأ فرد . . تجاه فرد ولكن بسكوت الجماعة المسلمة . . يكون قد تحول إلى جريمة مجتمع فى حق فرد ولابد أن تعرف الجماعة المسلمة ولو بعد مئات السنين كيفية حماية أحد أبنائها .

من أجل ذلك وقف المسلم الصحيح معاذ بن جبل . . وكان منه الرد الصحيح من حيث الشدة والوضوح أمام تهكم الرجل وفى الوقت الصحيح أيضاً وهو ذات وقت المقال المرفوض إذ يقول : « **بئس ما قلت . . والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً** »

هكذا إذا يكون الواجب الجماعى . . مثلما فعل معاذ بن جبل رضى الله عنه تماماً فهو أولاً : وصف قول القائل بأنه قول سيئ بل هو الأسوأ ثم استخدم القسم وهو يصف حال الصحابى الغائب ، وفى النهاية أعطاه حقه من الوصف اللائق . . هذا هو القول الصحيح ولكنه لم يقف عند حد القول الصحيح بل اختار أيضاً الوقت الصحيح فلا فائدة من إدخار هذا القول الرائع لوقت غير الوقت الذى قيل فيه القول الفاسد ، فالقول الصحيح فى مواجهة القول الخطأ يكون فى نفس الميدان وأمام ذات الشهود بأعينهم .

وحينما يكون القول الصحيح فى الوقت الصحيح فإنه يكون علامة على أن قائله هو المسلم الصحيح حال كونه الشخص المتوازن فى نفسه والشديد الحماس للحق دون مجاملة أو إعتبارات ذاتية وهو الشاهد لله القائم بالقسط .

فلو تصورنا المجتمع المسلم دون كلمة ألقاها الصحابى الجليل معاذ بن جبل ولو تصورنا الرواية وهى تنقل إلينا دون هذا الحائط الإجتماعى المدافع عن حق الآخرين فى غيبتهم . لوجدنا من الناحية الأولى مجتمعاً غير حريص على سلامة أفراده فضلاً عن تضافره أو تضامنه مع القول الفاسد . . مما يترتب عليه فى أقرب مستقبل لهذا المجتمع أن يشيع فيه أمر الحط من شأن الآخرين بغيبتهم وسوء ذكرهم . . ومن ناحية أخرى فلو انتقلت إلينا الرواية دون عبارة المسلم الصحيح معاذ بن جبل رضى الله عنه لانفلت زمام الحزن من نفوسنا ولازداد التساؤل عن مدى شرعية السكوت أمام إنتهاك الآخرين بالغيبة والتطاول على حرمتهم بل ولعل بعض البسطاء ينظرون إلى الصمت فى هذه الحالة على أنه حكمة ، وربما يصل بهم التخيل إلى تصوره كفضيلة من الفضائل !!

وهكذا يكون معاذ بن جبل رضى الله عنه قد أنقذ مستقبل الفهم الإسلامى الصحيح نعم / لقد أنقذ المسلم الصحيح بقوله الصحيح وفى الوقت الصحيح مستقبل الفهم الإسلامى الصحيح ولو لم يفعل لفعل غيره من المسلمين كما أنقذ واقع المسلمين وقتئذ كذلك من أن يجتهد أحدنا فى استحلال عرض أخيه فهو بذلك لم ينقذ واقع المسلمين فحسب وإنما أنقذ مستقبل الفهم الإسلامى الصحيح من الزوال أو التحريف (*)

(*) إن الغيبة السيئة تبدأ بسكوت فرد عنها ، ثم تنتهى باستخدام المجتمع لها ولنضرب مثلاً بجريمة السب التى شاعت فى المجتمع المصرى حتى أصبحت النيابة العامة لا تقدم دعاوى السب إلى القضاء إلا أن تكون لها ما يميزها من إعتبارات شخصية ، ذلك أن العقاب الإجتماعى الذى يبدأ بازدراء الفعل المؤثم هو الوقاية الحقيقة من خطر شيوعة . وما القانون إلا مظلة التعبير عن الرفض الإجتماعى وعلى العكس من ذلك فإن الخمر وشاربها وبائعها هم حال إزدراء الناس ولفظهم لهم حتى يومنا هذا . رغم إباحة القانون لها ، وتنظيم تداولها فما زال الرفض الإجتماعى هو الأساس ، وهو الحائط الأساسى ضد شيوع الخطأ فيا لجريمة الجماعة التى تنظر إلى جسد ميت يؤكل وهى صامته فتبيح بصمتها أكل الميتة ولو كان من البشر .

ومن أجل ذلك كان صمت الحبيب المصطفى ﷺ بعد تعليق معاذ بن جبل رضى الله عنه وقيامه بالذود عن عرض صاحبه بمثابة الإقرار لمعاذ.

لم يكن من المتخيل أن يظل المتدربون فى مدرسة الرسول ﷺ فى حالة صمت ، بل كان عليهم القيام بالبيان العملى لإنزال دروس الحبيب المصطفى ﷺ إلى الواقع التطبيقى وهذا ما فعله معاذ بن جبل رضى الله عنه وما يجب أن يفعله كل مسلم فى كل عصر وكان ذلك فى حضرة المصطفى ﷺ فى ما حدث من رجل من بنى سلمة كان له أبلغ الأثر فى نفس صاحب اليوميات ولولا وقفة الحق التى وقفها معاذ بن جبل رضى الله عنه ما اندمل الجرح الغائر فى نفس كعب بن مالك ذلك الجرح الذى فرض عليه ألا يسمى اسم من انتهك غيبته واكتفى بأن سماه (رجل من بنى سلمة) فمن الصعب أن نتصور فقدان الاسم من ذاكرة صاحب اليوميات ولكنه الأسى الذى يذهب به إلى أن يطرحه فى ثنايا روايته بشكل يوحى بعدم الاكتراث أو الرغبة فى إستبعاده من الذاكرة إلا أنه فى المقابل أصر على أن يذكر اسم من ذاد عنه وعن عرضه وهو معاذ بن جبل رضى الله عنه والذى كان يذود فى حقيقة الأمر عن مصداقية مجتمع إسلامى بأكمله .

إن موقف الصحابى الجليل معاذ بن جبل رضى الله عنه هو موقف يذود فيه الفرد عن مصداقية الجماعة وهذه هى حقيقة الموقف وجوهره إنه لم يكن يدافع عن كعب بن مالك رضى الله عنه بصورة شخصية أو لارتباط نفسى وإنما كان يدافع عن واقع تطبيقى صحيح لحكم شرعى يحول بين لسان المرء وبين حرمة الآخرين وفى حضور الرسول وهو يترك المجال لتدريب الأمة على الممارسة الصحيحة بحضرته والعجيب أن روعة وجوهر هذا الموقف قد رصدها صاحب اليوميات رغم ما يعانيه من إبتلاء .

الموقف الثانى : كعب يدافع عن وحدة الجماعة

ونضرب مثالين لما قام به صاحب اليوميات فى هذا الصدد كان الأول منهما فى مواجهة بنى سلمة أو فى مواجهة البعض منهم ذلك البعض الذى صاحبه بعد أن ترك مجلس رسول ﷺ والذى أقر فيه كعب رضى الله عنه بالخطأ أمام المصطفى ﷺ والأصل أن تكون تلك الصحبة هى العون على شدة الموقف وعلى الإبتلاء بعبارات الصبر والتذكرة برحمة الله وعفوه ولم يكن من المتخيل أن تكون تلك الصحبة من أجل إثارة حفيظته رضى الله عنه وإثارة تمرده على الجماعة المسلمة ومخاطبة الضعف النفسى إلا أنه مع ذلك رضى الله عنه قد قام بالحفاظ على هذه الوحدة من أن تنتهك ولنتأمل ألفاظ الرواية ودقتها إعتباراً من اللحظة التى ترك فيها كعب بن مالك رضى الله عنه مجلس رسول الله ﷺ : « **فقال ﷺ أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك .. فقمت وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ؟ ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون ، وقد كان كافيك ذنبك إستغفار رسول الله ﷺ لك** » .

« **فو الله مازالوا يؤنبوننى حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسى ثم قلت لهما : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . . فقلت : من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما** » .

وإذا ما تناولنا ما قامت به مجموعة من الجماعة المسلمة فإننا يجب أن نضعه فى الإطار الصحيح بالتعبير العصرى فهو تحريض على اتخاذ موقف

غير الذى ذهب إليه كعب ثم إن ما قاموا به أيضاً هو تهوين من أمر الذنب مما يوحى ولو من بعيد بوصف أمر القائد ﷺ وقراره فى مواجهة كعب رضى الله عنه بأنه قرار شديد أو على الأقل بأنه أشد مما يقابل به مثل هذا الخطأ . . على حسب ما رموا إليه ومازال هذا الأمر يتكرر فى حياتنا . . حتى يومنا هذا . . ومازالت هذه المجموعة فى كل مجتمع تردد (**والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ؟**)

إلا أنها دعت الصحابى الجليل إلى طريق غير الطريق الذى ارتضاه الله لعباده طريق الصدق فانظر إليهم وهو يكررون ويلحون على مسامعه .

(ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون ، وقد كان كافيك ذنبك إستغفار رسول الله ﷺ لك) .

إنها دعوة صريحة للخطأ الثانى . . فإذا كان الخطأ الأول هو التخلف عن الغزوة فإن الخطأ الثانى هو الأفدح وهو عدم الإعتراف بالخطأ والفرق واضح فالتخلف عن الغزوة يعبر عن لحظة ضعف . . تجبرها لحظات القوة التالية والتى هى الأصل فى حياة الإنسان ولكن كتمان الحق يعبر عن حالة ضعف مستمرة طالما بقى الإنكار وهو ما يدعوا إليه البعض من بنى سلمة .

من أجل ذلك فإن البعض وربما بحسن نية قد يدعون أصحابهم إلى الخطأ الأكبر تحت مظنة أنهم يواسونهم فى محنتهم ولا يعلمون أن المرء فى لحظة الإبتلاء يكون ضعيفاً وقابلاً لما يلقى إليه من نصائح حتى لو كانت تؤدى به إلى الأسوأ .

إن عدم الإعتراف بالذنب يعبر عن نفس متكبرة عنيدة قاسية القلب ذلك أن الفطرة السليمة هى التى تؤدى إلى الإعتراف بالخطأ .ولابد أن تقبل

الجماعة بين أبنائها نفوساً تعرف الخطأ وتعرف معه الإعتراف به ، ولكنها لا تقبل أبداً من يعرف الخطأ ويعرف معه التكبر والصلف .

وإذا كانت فداحة ما يدعون إليه تأتى مستحيلة مع نفس كنفس كعب بن مالك رضى الله عنه إلا أن دعوته إلى تغيير صدقه هو خطأ ترتكبه مجموعة من المسلمين فى حق واحد منهم لاسيما إذا كان يمر بالإبتلاء والمحنة ، وهى لحظات الأصل فيها الضعف ، فعلى الناس أن يتخيروا لألفاظهم مواقعها .

ومن هنا فإن النفس التى أخطأت وأقرت بما فعلته لا تستريح من تأنيب الضمير ، إنما يكون محور الإبتلاء فى ذاتها هو الشعور باللوم وتكون دعوة المجتمع لها إلى الكذب أو الإنكار إنما هى بمثابة المزيد من الإبتلاء لها والتعذيب والتنكيل بها فإذا كان هذا عذاب نفسه اللوامة بعد خطأ واحد فكيف يكون العذاب بعد إنكار الحق والكتمان بصورة مستمرة .

الخلاصة إذاً أن دعوة مجموعة من المسلمين لكعب بن مالك رضى الله عنه إنما كانت دعوة للعذاب أو لمزيد من العذاب ولم تكن للتخفيف عنه أبداً ولو كانت بحسن نية ولكن كما قال أحد الصالحين المجاهدين رحمه الله (*) إن هذا الجيل هو الجيل القرآنى الفريد .

وكما وقف معاذ بن جبل رضى الله عنه مدافعاً عن التطبيق لأحكام الإسلام وقف كعب بن مالك الموقف الصحيح أمام تلك الدعوة التى تؤدى إلى المزيد من العذاب فالموقف فى غاية القسوة والنفس المسلمة صاحبة الإبتلاء العظيم تعانى من اللوم الذاتى وفى ظل كل هذا يجد الصحابى

(*) عنون الأستاذ / سيد قطب رحمه الله لأحد أبواب كتابه القيم معالم على الطريق بعنوان « جيل قرآنى فريد » .

الجليل من يدفعه إلى الكذب حتى يصل به إلى حالة عبر عنها رضى الله عنه بقوله : « **فو الله مازالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسى** » .

وهذا الموقف الخاطئ من جمع من المسلمين لم يزد الصحابى الجليل إلا ألما وترددا ولكن بالرغم مما سبق لجأ صاحب اليوميات إلى الصمود والتمسك بالحق والتترس (الإقتداء) بالنماذج المعبرة عن الواقع الإسلامى الصحيح إذ يقول : (**ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أ.. د ؟ قالوا نعم رجلان ، قالا مثل ما قلت وقيل لهما : مثل ما ..ل لك فقلت من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة . . فمضيت حين ذكروهما**) .

ويأتى عمق السؤال وروعته فى كونه نوعاً من أنواع الإستدلال على صحة الفعل . . فالاستدلال بالصالحين فى أعمالهم هو الأسلوب الصحيح للحكم على ما انتهى إليه المرء من موقف حتى ولو كان موقفه بالغ الوضوح وكما قلنا فإن هذا النوع يلجأ إليه المرء فى حالات معينة وهو ما نسميه بالتترس بالواقع الإسلامى الصحيح .

وهذا ما فعله الصحابى كعب بن مالك بمواجهة همزات الشيطان فى نفسه والتى عاون ..يطان فيها رجال من بنى سلمة غابت عنهم بعض جوانب من ..كمة الموقف وأحكام الشريعة فنصحوا بغير ما يجب أن ينصحوا به .

(هل لقى هذا معى أحد ؟)

فإذا أشاروا فى إجابتهم إلى رجال صالحين كان هذا هو الحكم على

صحة ما ذهب إليه كعب وهو أيضاً الحائط الذى لجأ إليه الصحابى الورع أمام نصيحة السوء وهو حائط القدوة والأسوة .

والقدوة هى قارب النجاة إذا ما اختلط الرأى بين الناس وتلاطمت الأمواج وأكثر ما يقع فيه الناس من خطأ على مر العصور هو إثارة اللغط حول الرموز والقدوة الحسنة لأن الناس إذا عاشوا وقد فقدوا الثقة فى رموزهم وقدوتهم فقدوا كل شئ ولن يثقوا فى شئ بعدها .

وكانت القدوة هى الميزان الذى وزن به كعب بن مالك الأمور ذلك أن مرارة بن الربيع قد أخطا وأقر بالخطأ أمام الرسول ﷺ وهو رجل مشهود له بالصلاح والقدوة بين الناس .. فلابد وأن الإعتراف بالخطأ هو الفعل الصحيح فى هذه المواقف .

وإذا أضفنا إلى مرارة بن الربيع هلالا بن أمية الواقفى . . وهو من هو وقد أخطأ وأقر بالخطأ أمام المصطفى ﷺ يكون الأمر قد حسم لصالح المنهج الصحيح ومن هنا قال الصحابى الرقيق صاحب اليوميات .

(فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما)

وهكذا يتغلب الرجل القرآنى على نصيحة غير موفقه تأتى إليه فى وقت يعانى فيه من كل ألم وضيق واضطراب وتتكرر عليه حتى إذا ما شعر بالضعف استعان بالله ثم بالأسوة الصالحة كرداء إجتماعى يقيه من الخطأ .

الموقف الثالث

الحب بين جماعة المسلمين

وأروع ما فى هذا الموقف أنه يكشف عن طبيعة القلوب فى هذه المرحلة وكيف حولها الإسلام لتصبح كتلة واحدة وبناءً واحداً وجسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تألمت بقية الأعضاء .

نعم إن هذه الصورة التى رسمها الرسول ﷺ فى حديثه للمسلمين كالجسد الواحد تتحقق فى رواية كعب بن مالك فى يومياته وكأنها نوع من أنواع التأريخ لهذه المرحلة .

وهذا الموقف الذى تعبر عنه الكلمات الصادقة يأتى فى نهاية القصة وكما رسمتها كلمات الصحابى الرقيق عن معنى الإبتلاء (**فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله عز وجل قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت**) .

وفى وسط هذا الظلام يسمع صوتاً يقول بأعلى ما يمكنه ومن أعلى مكان صارخاً من الفرحة ولم يسمع كعب منه إلا كلمتين « **يا كعب . . أبشر** »

وكأن الرياح قد شاركت هى أيضاً فى تبليغ البشرى فلم يندثر الصوت مع الظلام أو يتبعثر مع ما تبعثر فبقى هذان اللفظان « **يا كعب أبشر** » .

هكذا يجب أن نتصور فرحة المسلمين بعضهم لبعض وهكذا ينبغى أن نتعلم ماذا يريد منا صاحب الإبتلاء أى إبتلاء إلا البشرى لنسعى إلى تحقيقها له فإن لم نستطع فلا نطبق عليه أبواب الأمل بالجهل والتقاعس والكلمات المرذولة .

لقد سمع كعب الصوت ولم ير صاحبه لسبب وحيد هو أن صاحب البشرى أراد أن ينقل إليه البشارة ويحصل على أجر السبق الذى كتبه الله

للمبشرين إنها السعادة فى صورتها الكاملة يشعر بها الأصحاب لصاحبهم وتدفع أحدهم لأن يصرخ من السعادة ليصل صوته إلى صاحب الإبتلاء .

إن الجماعة المسلمة ما كانت لتفرح أبداً وواحد من أبنائها يمر بمحنة بل وما كان ليمر عليها اليوم بأقل مما يمر على المبتلى من العناء والألم فهذا الذى صرخ كان يعلم كيف سيتدافع الناس لنقل البشرى فأراد أن يكون له السبق وهو ما حدث فعلاً فانظر إلى ما ورد فى اليوميات فى هذا الصدد .

(فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض رجل إلى فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه) .

والآن آن لنا أن نتخيل حركة الناس وفقاً للصورة السالفة بين مجموعات من المتحابين تجرى هنا وهناك وبين عشرات تتدافع إلى الصحابى كعب بن مالك وعشرات أخرى إلى صاحبيه فى ذات الوقت ورجل يجرى ليبشره وآخر يحاول أن يسابق الآخرين إلى البشرى والكل يفكر فى أسلوب لاختصار الطريق ثم يقف أحد المسلمين فوق جبل ليسارع بنقل البشرى بصراخ عال كى يحمله الهواء إلى كعب والناس فى سعادة بالغة يتدافعون الخطوات ليصل منهم من يصل حاملاً البشرى وهذه هى صورة المعاناه المشتركة للأمة الإسلامية وهى صورة الفرحة المشتركة أيضاً أو لنقل إنها الفرحة الواحدة والقلب الواحد .

ثم يخرج الصحابى من بيته بعد أن تلقى البشرى فيجد ما وصفه فى يومياته « **وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقانى الناس فوجاً .. فوجاً .. ليهنئوننى بالتوبة يقولون ليهنك توبة الله عليك** » .

ولا يجد المرء وصفاً أروع مما يصف به صاحب اليوميات تلك اللحظة فالناس عادة يقدمون التهانى واحداً واحداً أو فرداً فرداً ، ولكن الأمر يختلف إذا صار المهنئون شعباً بأكمله .

إن هذا السلوك الجماعى هو الصحيح فى مثل هذه المواقف ولا أقصد بذلك مجرد التهنئة فهذا أمر يتم حتى فى المجتمعات التى خفت فيها صوت الحب الإسلامى ولكن المقصود بالأمر الصحيح هو ما قامت به الجماعة من تسابق بالبشرى ثم من تدافع للتهنئة يشير إلى خلاص كل واحد منهم من هذه المحنة التى عاشوها جميعاً .

إن علينا أن نشعر صاحب الإبتلاء أنه لم يكن وحده وأن خلاصه هو خلاصنا جميعاً وأن الحياة ما كانت تدور دورتها العادية فى غيابه وأن شوقنا لنهاية المحنة لم يكن أقل من شوقه .

وحتى نفعل ذلك فى مجتمعاتنا سنظل بعيدين عن درجة الإمتياز والتفرد التى تمتع بها هذا الجيل القرآنى الفريد والذى تحقق فيه معنى قول الحبيب المصطفى ﷺ أن : «**أحب لأخيك ما تحبه لنفسك**» لقد أرادوا أن يخبروا كعب بن مالك أنهم يعانون تماماً مثله وأن عودته إليهم ردت إلى الواقع طبيعته وبهجته وهذه هى مكانته بينهم وقد كانت شاغرة فعاد إليها فارسها كعب بن مالك بروعة هذا البعد الجميل فى عالم الإبتلاء .

إن الصورة التى نقلها صاحب اليوميات هى الميزان الحرارى (الترمومتر) الذى يجب أن نقيس به حرارة المجتمع . فكلما تحقق جزء منها كلما اقترب من الحرارة الطبيعية الصحيحة وكلما ابتعد عنها كلما اقترب من البرودة حتى إذا ما تمكنت منه قتلته ولقد أجمع أصحاب الفكر من فلاسفة الغرب على أن نهاية مجتمعاتهم لن تكون أبداً تحت وطأة برودة الجو والمناخ إلا أنها حتماً ستكون تحت وطأة برودة النفس والوجدان .

وعلى أصحاب مناهج التربية في المجتمعات والتجمعات أن يقيسوا مدى نجاحهم بمقياس وحيد يكشف عن حرارة الإتحاد النفسي وعن حرارة المشاعر بين المسلمين ولا ينبغي الإعتماد على غير هذا المقياس .

الموقف الرابع

حكمة عالية .. ومواقف تعليمية

وبعد هذه الفرحة الغامرة للمجتمع المسلم الذى عانى بمعاناة أحد أبنائه وبعد هذه الصورة الجميلة فى التراحم والإندماج الوجدانى .

ذهب صاحب اليوميات إلى حبيبه المصطفى ﷺ تحمله الجماعة المسلمة على أكتافها وفى قلبه سعادة غامرة لا وصف لها حتى دخل على الحبيب المصطفى ﷺ وهنا يكون الموقف الرابع والذى يدل على حكمة عالية لصحابى جليل وهو طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه فقام إلى كعب يهرول إليه بينما انتظر بقية الأصحاب قدوم كعب إليهم وربما لم يشأ الصحابة أن يحدثوا هرجاً أمام رسول الله ﷺ أو لعلهم قد رأوا أن الأوفق هو إنتظار كعب ليمر عليهم واحداً واحداً وكلها مبررات مقبولة وقريبة إلى الواقع .

إلا أن الأمة فى كل عصر لابد لها من رمز يعلمها بحكمة عالية وبصيرة تقفز فوق الواقع وفوق المقبول والمعقول ليصلوا إلى الحكمة .

فإذا كان ما فعله معاذ بن جبل رضى الله عنه وهو يذود عن عرض كعب هو حكم الشريعة فإن ما فعله طلحة هو حكمة الشريعة . . وتلك التى يؤتيها الله لمن يشاء « **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب** » سورة البقرة ٢٦٩ .

ولكى نتدارس تلك الحكمة فإن علينا أن نسترجعها من مصدرها إذ يقول صاحب اليوميات رضى الله عنه : « **قال كعب : حتى دخلت المسجد**

فإذا برسول الله ﷺ جالس حوله الناس ؛ فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة » .

فإذا علمنا أنّ معنى الهرولة هو الإسراع فى المشى بصورة قد تقترب من العدو فإننا نكون بذلك العلم قد رسمنا الصورة الصحيحة للفعل الحكيم الذى أتى به طلحة بن عبيد الله . . ذلك الفعل الذى لا يزيد عن بضع خطوات مسرعات بينما انتظر الباقون فى أماكنهم قدوم كعب بن مالك رضى الله عنه .

أما عن قيمة تلك الهرولة فإنها تظهر إذا علمنا بعض المقدمات والتى يأتى على رأسها دراسة طبيعه المحنة التى يمر بها الصحابى الجليل كعب بن مالك فهى أولاً محنة الخطأ ثم محنة إعتزال المسلمين له ثم محنة إبعاد زوجته عنه وكل محنة من هذه المحن تخاطب عزته وكيانه بين المسلمين بصفة عامة وبين قومه بصفة خاصة فتهد وتحد منها وتقلل من اعتبارها وقد كان هو من كان بين قومه وأهله وبين المسلمين جميعاً فأتى عليه يوم وقف منه الناس موقفاً عبر عنه بهذه الألفاظ القاسية على النفس « **ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف** » .

ومن هنا فإن إجتناب الناس لهم وعن محادثتهم جعل كعب بن مالك رضى الله عنه يظن أن الأرض ليست هى الأرض التى عاش فيها وتربى على ظهرها فإن أرضه التى كان يعرفها كانت تسيده وترفعه وتجعل منه علماً يشار إليه بالبنان وتتسارع إليه الركبان وكلٌ يتهافت إلى محادثته

ويتودد إلى صحبته فلم تعد هى الأرض فعلاً وليس الناس هم الناس ولم تعد الهيبة كما كانت .

ومن كل ما سبق تحدد أمر المحنة فى زوال الهيبة والإعتبار والعزة والمكانة وكان خير تعويض للنفس التى حرمت طوال محنتها من الهيبة والإعتبار هو توافد الناس أفواجاً للتهنئة والبشرى فهذا ما كان يحتاج إليه صاحب اليوميات وقتئذ وهو العودة إلى ما كان عليه أو الشعور بذلك ومن تمام المعالجة أن يذهب إلى القائد فيلقاه القائد مبتسماً على النحو الذى سنتناوله فيما بعد فى هذه النقطة ومن تمام المعالجة أن يسعد به المهاجرون قبل الأنصار وأن يسارعوا إليه وكل هذه المعالجات الإجتماعية قد تمت على أجمل وجه إلا أنها لم تكن على أكمل وجه فلم يقف المهاجرون الجالسون عند رسول الله ﷺ بينما هرول طلحة بحكمة عالية المستوى فأكمل بحكمته اللمسة الأخيرة فى هذه اللوحة الرائعة .

ولأن النفس الإنسانية وقت المحنة تكون فى رقة الصلصال اللين فإن أى علامة سرعان ما تترك أثرها فصحيح أن النفس قد تصفح عن أخطاء الآخرين وتسمو بحبها فوق أى تقصير من الغير ولكنها تتذكر الوقائع عادة ولو من باب الذكريات المؤلمة .

لم يقف احد من المهاجرين إذن ممن كانوا بمجلس رسول الله عليه السلام ولكن وقف طلحة وقف لأنه يملك الحكمة فهو قد فطن إلى الأولويات وإلى ما يحتاجه الآخرون فأعطاها لهم .

فالمبتلى بالمرض يحتاج إلى من يشعره عند الشفاء بأنه قد عاد أصح مما سبق وأن يمتدح حالته وعافيته حتى وان بدا عكس ذلك .

وهنا يأتى أمر رسول الله ﷺ لمن يعود مريضاً (**نفسوا له فى الأجل**) أى أمدوه بالأمل فى طول الأجل .

وهنا يأتى أمر رسول الله ﷺ أن نردد أمام المريض ما يرفع عنه الأوهام وأن نصفه بأحسن الأوصاف بكل ما تحمله كلمة (لا بأس) التى كان يرددها ﷺ إذا ما عاد مريضاً . . لا بأس . . طهور . .

وعلى هذا النحو تسير الحكمة مع سائر العباد حين يرفع المولى عنهم إمتحانه برحمته بين إمتداح لحالة والتعبير بالكلمات المناسبة .

فعودة الغريب إلى داره يجب أن ينتقى لها الألفاظ التى تعيد إليه ثقته فى نفسه وأنه المأمول بين الناس وأنهم إذ افتقدوا وجوده لم يعوضهم عنه إلا العودة .

ولم يكن كعب بن مالك يحتاج إلا لهذه الحكمة العالية وأن يهرول إليه المهاجرون كما هرول طلحة . . وأن يقولوا بفعلهم ما لا تقدر عليه آلاف الكلمات .

فمن هرول إلى كعب كان يؤكد له عودة مكانته بين قومه واسترداد هيبته فالهرولة قد تعنى الاشتياق ولكنها أيضاً تعنى الاحتياج وتعنى التوقير وتعنى عودة الأمر إلى ما كان عليه .

ورب قائل إن المهاجرين لم يرتكبوا إثماً بإنتظارهم قدوم كعب بن مالك إليهم وهذا صحيح إلا أن المقام ليس مقام الآثام أو الذنوب أو المباح أو الجائز بل هو مقام الحكمة العالية التى تخدم الجسد الإسلامى بإضافة طبقات

صلبة لحمايته ولزيادة رونقه وروعته وتحسين أدائه فى أجمل الصور ، إنه مقام من يملك أدوات المعالجة وهو عمل تقوم به الصفوة ممن أتاهم ربهم درجة الحكمة .

ولنا أن ننظر إلى عبارات الصحابى الجليل صاحب اليوميات وهو يؤكد أنه لن ينسى هرولة طلحة وكأنه يقول ببلاغة العرب ولن ينسى معها أن غيره لم يفعل ذات الفعلة الجميلة واستنتاج ذلك سهل يسير إذا ما طالعنا ألفاظ اليوميات عند هذا الموقف إذا يقول : « **والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره . . ولا أنساها لطلحة** » .

صحيح أنه لن ينساها لطلحة وصحيح أيضاً أنه لم يهملها بشأن من كانوا بالمجلس ولم يهرولوا كما فعل طلحة فلن ينسى هذا ولا ذاك أيضاً .

قد يسامحهم وقد لا يحمل ضغينة بين جوانحه وهذا هو الصحيح فى إعتقادنا عن هذا الجيل الفريد ولكن ستبقى لطلحة بن عبيد الله تلك العلامة الرائعة فى نفس صاحب الإبتلاء فخلدت فى رواية تروى حتى قيام الساعة ويعلم منها المسلمون الحكمة فيعلمون ويتعلمون ويعلمون .

لم يكن جديداً بعد ذلك أن نذكر ، طلحة ، فهو طلحة بن عبيد الله احد العشرة الذين بشرهم الرسول الحبيب ﷺ بالجنة .

فلا نبوغ لمجتمع . . لا يوجد فيه طلحة . .

ثالثاً : نموذج القائد

الدولة الاسلامية على مر العصور تقوم على اقدام راسخة وأعمدة ثابتة من أهمها القيادة ذلك أن الحاكم هو القائد فى الجماعة المسلمة وهو فى ذات الوقت الرمز والقدوة التى ينظر إليها عموم الناس فيصلحون بصلاحها وكان الخليفة عمر بن الخطاب هو حرز الأمة من الشيطان وكذلك كل قائد صالح هو حرز لأمته من الشيطان وفى يوميات الصحابى كعب بن مالك رضى الله عنه إشارات عديدة إلى المصطفى ﷺ كقائد لهذه الأمة وحاكم لها وتبين الإشارات علاقته ﷺ بأمته ، وكذلك بالصفوة التى صنعها الله على عينه سبحانه وتعالى ومن أهم هذه العلامات التى سنتوقف عندها قليلاً .

أولاً القائد المحب **ثانيا : القائد المربى**

أولاً : القائد المحب

جميل أن نرى بين ثنايا اليوميات حب الجنود لقائدهم المصطفى ﷺ وقد تجلى هذا كما سبق القول فى كل جانب من جوانب محنة كعب بن مالك والتى أضاف إليها حبه لرسول الله ﷺ طبيعة خاصة وشوقاً مميزاً ومحنة فوق محنه .

ولكن الأجمل والأروع هو أن نلحظ بين ثنايا اليوميات حب المصطفى ﷺ لجنوده حباً جعله ﷺ يتابع أمورهم ويشفق عليهم ويألم لألمهم حين يتابع المصطفى ﷺ أصحابه خشية أن تزل قدم بعد ثبوتها وإشفاقاً عليهم من غضب الله عز وجل أو البعد عن الصراط السوى إنه الحب فى أعلى صورة فالقائد يجلس ليسأل عن أصحابه وأحبابه واحداً واحداً حين يفتقدهم وفى مكان المعركة وساحتها يسأل ﷺ « **ما فعل كعب ؟** » .

وكانت هذه العاطفة هى مفتاح النجاح والتوفيق والسيادة فى المجتمع الإسلامى الأول .

إن حب القائد تنطق به كلمات اليوميات والحب هو النتاج الطبيعى للمنهج السليم وهو وسيلة الحكم الوحيدة على نجاح أى منهج فردى أو إجتماعى ونجاح أى جماعة مسلمة مرهون بالنظر إلى الحب فيها ومدى تأصله بين نفوس أفراده فالجماعة المحبة لا يحسد بعضها بعضاً ولا يغتاب بعضها بعضا ولا يقاتل بعضها بعضاً باعتبار أن القتال هو أعلى صورة للحسد والبغض ....

ولأن القائد هو فرد من الجماعة فهو لا يزيد عنها بقدره ولا يعلو عليها بهامته ولا يختلف عنها فى قلبه ، فبين جوانح القائد قلب نابض بالحب حتى فاض على الجنود وهو النموذج الإنسانى الذى يجب أن يكون الحكم على المجتمعات بقدر ما اقتربت من هذا النموذج أو ابتعدت عنه ، والقائد حينما يعاقب أو يربى فهو يتخذ القرار بعقله المستجيب لنهج الله تعالى والمتلقى لأحكامه ويستقبله أيضاً بقلبه المحب الذى يتمنى للجندى أن ينجح فى الإختبار وأن يعود إلى درجات الإمتياز والتفرد .

لم يكن القائد يطبق عقاباً على كعب بن مالك رضى الله عنه وإنما كان يعيد صياغته النفسية من جديد على النحو الذى سيلى بيانه عند الحديث حول حكمة القائد .

وإعادة الصياغة لاتتم بأحكام عامة مجردة جامدة إنما بمعالجة الطبيب المحب الشفوق على من وضعه الله أمانة بين يديه وأطلعه على عيوبه لا لفضحه ولكن لعلاجه .

إن هذا الكم من الحب هو الذى يضمن نجاح الاختبار ويقوى نفس الجندى على مقاومة الإبتلاء ولقد عبر كعب بن مالك عن ذلك الحب تعبيراً

مس شغاف القلوب فى صورة رائعة بين القائد والجندى « **وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة وأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام علىّ أم لا ؟** » .

وينتهى عند هذا الحد المشهد النفسى الأول والذى يدور داخل نفس الجندى حينما تستبد به الحيرة حول قائده وحبيبه سائلاً ما إذا كان ﷺ قد رد السلام أم لا ويبقى ما قاله عن حب القائد له وهو الأهم فى المعالجة فيقول « **ثم أصلى قريباً فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلىّ وإذا التفت نحوه أعرض عنى** » .

ما أجملها من صورة إنها صورة الحب الخالص ، وما أروعه من قائد محب ، ما تمنعه صرامة إجراءات العلاج ودقة تنفيذها من أن يلبى نداء قلبه تجاه المحبوب ، لأنه يحب جنوده ويبادلهم حباً بحب وإذا كان ﷺ هو الذى أمر بمقاطعة الثلاثة إلى أن يقضى الله فى أمرهم إلا أن هذا الأمر لم يصدر عن غضب أو ضيق إنما صدر عن عدالة وقيادة وحكمة وتربية وحب . فهى عدالة لأن كعبا ومن معه هم من المسلمين رغم مكانتهم متساوون مع عامتهم فى الحقوق والواجبات وهى قيادة لأن الجندى الذى ثقلت به قدمه عن معركة يحتاج إلى إعادة صياغته وإلى تدريب نفسى جديد ليعود إلى مستواه الإيمانى فالجندى لابد وأن يحمل قلب مسلم قبل أن يحمل سيف مسلم .

ورغم هذه العدالة وهذه القيادة فقد سكن معهما جنباً إلى جنب حب عميق نادر المثال يجعل القائد ينظر إلى الجندى فى شفقة ثم سرعان ما يلحظ ﷺ أن الجندى قد إنتهى من صلاته فيعود بوجهه إلى الجانب الآخر .

والجندى يسارق قائده النظر والقائد يمنع نفسه من النظر إليه رغم رغبته إليها حتى إذا أقبل الجندى على صلاته نظر إليه القائد شفقة ومحبة فإذا ما نظر الجندى إلى قائده ﷺ التفت بوجهه إلى جهة أخرى وهكذا ، وليس فى الروايات أدق من تعبير كعب بن مالك على النظرة المحبة .

(فأسارقه النظر)

وليس فى الروايات أدق من تعبيره رضى الله عنه عن نظرة رسول الله ﷺ .

(أقبل إلىّ)

ويا لرقة التعبير عن نظرة المصطفى ﷺ إلى أحد جنوده الأحباء فالإقبال أعم وأشمل من النظر ذلك أن الإقبال يشير إلى حالة النفس وقت الفعل وهو تعبير عن شدة الصفاء والمحبة وهو أعلى من مجرد النظر وبعد هذا التعبير الرائع لن يدور السؤال حول نظرة المصطفى ﷺ وما إذا كانت نظرة عتاب أو ضيق أو لوم شديد أو إنها نظرة الإقبال النفسى فى أسمى معانيها وفى مزيج من الحب والشفقة والحنان .

إن فى حب الرسول ﷺ لأمته سر البقاء والخلود ، سر القوة والإنتصار ذلك أن الحب هو الرحمة ولأن الحب هو الرأفة فإن القرآن قد منحهم لقب الرحماء حينما وصلت الوشائج بينهم إلى مستوى الرحمة « **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** » سورة الفتح الآية ٢٩ .

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

ولأن الرسول ﷺ كان رءوفاً رحيماً بأمته فإنهم قد أصبحوا رحماء بينهم فيجب علينا أن نطالب بعد ذلك أى قائد لم يجمعه مع جنوده رباط

الحب ، بأن يترك موقعه فوراً ، فطاعة القائد وحبه مزيج واحد لا ينبغى أن يغيب طرف منه أبداً (**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**)

سورة ال عمران الآية ١٥٩ .

ثانياً : القائد المربى

إن التربية تحتاج إلى الحكمة والحكمة تقتضى إستخدام كل السمات الإنسانية للقائد فى مزيج واحد ويتبارى القادة فى درجاتهم حسب التباين فى هذا المزيج .

وتباين المواقف هو الذى يفرض تباين استخدام السمات التربوية للقائد ومن المعلوم أن القائد المربى يختلف تماماً عن القائد العسكرى الذى يقود حملة ما كما يختلف عن أصحاب المهام والمسئوليات المحددة وهو على وجه العموم أشمل وأعم فى المهام والحكمة مطلوبة فى الكثير من المواقف القيادية إلا أنها عند القائد المربى تعد من أهم الأسس والعناصر التى يجب أن تقوم عليها شخصيته وعلى من يتولى مسئولية القيادة أن ينظر إلى الجانب التربوى الذى تتضمنه تلك المهام ، ذلك أن المزج بين السمات هو كالمزج بين عناصر الدواء فلا ينبغى أن تزيد نسبة اللين فى موقف عن القدر المطلوب إلا أنه فى موقف آخر قد يكون الحزم هو سيد الموقف وصاحب النسبة الأعلى ويكون اللين هو الأمر اللازم للحفاظ على سلامة العصا حتى لا تنكسر فلا يصلح لها التقويم بعد ذلك ولأن الحبيب المصطفى ﷺ هو النموذج المقاس عليه فمن العقل أن نتدبر رحمته بأصحابه ومن العقل أيضاً أن نتدبر حزمه فى تطبيق الأحكام ومعاقبة المخطئ .

وكثير من القادة يظنون أن الحزم فقط هو أساس القيادة فيغالون فى تقديم قيادة من سمة واحدة تقتل المريض ولا تعالجه وهم إذ يرتكبون ذلك الخطأ يستترون خلف النظام والقواعد والقانون والمبادئ وغير ذلك من العناوين البراقة إلا أن اللين وحده أيضاً قد يقتل المريض كذلك لاسيما إذا تم تجاهل نسبة الحزم المطلوبة والجدية فى تطبيق الأحكام وقد يستتر أيضاً أصحاب هذا الأسلوب خلف عناوين أكثر إبهاراً من سابقتها كالرحمة والتآخى والمودة والرفق .

إن [*] المزيج الصحيح لا يصدر إلا من قائد صحيح لا يكون لمزاجه الشخصى أى دور فى تكييف المواقف أو تقدير الأشخاص .

فالموقف هو العنصر الأول من عناصر التقييم ويأتى بعده الشخص وطبيعته وتاريخه ومكانته فهى العناصر التالية من عناصر التقييم ومن خلالها يتم وضع المزيج المناسب لمعالجة مرتكب الخطأ إلا أن المزاج الشخصى للقائد[*] ليس هو الآفة الوحيدة التى يجب علاجها أين وجدت بل قد يكون أشد منها الطبيعة الشخصية للقائد التى لا تحسن مزج السمات والأساليب التربوية ولو بحسن نية وهو تصور شخصى يعود إلى قلة الإمكانات فى هذا المجال فالقيادة قدرة وملكة ويخطئ كثير من الناس إذ يعتقدون أن صناعة القائد هى صناعة نظرية تعتمد على المدونات والمعلومات المكتوبة .. ذلك أن القائد هو مزيج من الصفات التى وهبها الله لمن يشاء وبين التدريب على ممارسة هذه الصفات فى الواقع العملى .. أما عن المعلومات والمدونات فإن القادة فى الحقيقة هم الذين يدونونها من خلاصة تجاربهم ليستفيد بها قادة آخرون يملكون مزيجاً من الصفات مع التدريب العملى .. إننا لن نصنع قائداً

(*) يقصد بالمزاج الشخصى - الهوى

لمجرد رغبتنا فى ذلك .. لكن الله يهب الصفات بحكمته .. فلا فضل لملكة القيادة على ملكة التخطيط ولا فضل كذلك لملكة التخطيط على ملكة التنفيذ وكلٌ ميسرٌ لما خلق له وفى ذلك تفصيل نخصص له كتاباً مستقلاً إن شاء الله .

وفى قصتنا فإن إستعراض الوقائع عند المصطفى ﷺ كان هو المقدمة العادلة لصناعة المزيج المناسب لمعالجة المرض .

إن القائد هنا هو الطبيب الذى قد لا يعاقب المريض على إرتفاع حرارته وإنما يلجأ إلى معرفة أسباب إرتفاعها فيعالجه وهنا فقط يفرض الطبيب على المريض إقامة جبرية لمدة محددة أو العزل عن الأصحاء أو غير ذلك فإن القائد المربى هو الطبيب المعالج والأب الشفوق والأم الرءوم والقاضى العادل والأب الحازم ، وكل ذلك فى وعاء واحد ومزيج واحد متفاوت المحتوى فى قوته أو لينه حسب الحالة والشخص ، ويجمع بينهم وعاء الحب فى نفس القائد والذى سبق أن أشرنا إليه حينما ينظر ﷺ بطرف عينه حباً وإشفاقاً على صاحبه ومع ذلك هو هو ﷺ يبشر صاحبه بتوبة الله عليه .

(أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك)

وتأتى التهنئة بعبارات تكسوها المحبة أو هى عادة مما تتداول بين الأحبة والأصحاب ثم هو هو ﷺ الذى يستنير وجهه من فرط سروره بتوبة الله على صاحبه .

(وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف منه ذلك)

ومن هنا فإن المهمة التى ألقيت على عاتق الحبيب المصطفى ﷺ ذات وجوه ثلاثة .

أولها: وضع العلاج المناسب لمثل هذه الشخصية شدة أو لينا .

ثانيها:مراعاة حجم الإبتلاء الذى وقع فيه الصحابى بما يعانيه من لوم ذاتى وشعور فياض بالندم فما كان الوجه الأول وهو العقاب ليعيش فى منعزل عن الوجه الثانى وهو واقع الإبتلاء الذى يمر به الصحابى .

أما الوجه الثالث: فهو المطلب الأساسى من العقاب أو الإبتلاء أو كافة الإجراءات الأخرى وهو إعادة صياغة تلك النفس الراقية لتعود إلى رقيها السابق أو أعلى منه فلم يكن العقاب فى حالتنا لمجرد العقاب كما أن شدة الإبتلاء لم يقصد منها إلا إعادة البناء وهو الهدف الذى يجب أن يسير اليه العلاج مع الإبتلاء ومن هنا سيتم بعون الله مناقشة الوجوه الثلاثة (العلاج - والإبتلاء - وإعادة الصياغة) التى نظرها رسول الله ﷺ فوفق بينها وأخرجها فى وعاء واحد وهو وعاء الحب .

العلاج

فأما العلاج فبدأ بقوله ﷺ « **فقم حتى يقضى الله فيك** »

ثم يتطور « **ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف** » .

ثم يصل العلاج إلى ذروته حين يأمر المصطفى ﷺ بالعزل بين الصحابى وزوجته .

« **حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك بأن تعتزل امرأتك** » .

وهذا أمر خطير يثير تساؤل الصحابى عما إذا كانت زوجته قد أصبحت لا تحل له ؟ أم سيفرق بينهما ؟ أم أن هذه مقدمة للحكم على سلامة دينه وعقيدته ؟

وأما الإبتلاء فيكفى ما وصف به الصحابى الجليل حاله « **حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة** » .

ثم يحاول أن يحدث مسلماً قريباً إلى نفسه ولعل قرابته تشفع له فيرد عليه حديثه أو يسامره « **حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتاده وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فو الله ما رد على السلام** » .

ولا ينسى الصحابى الجليل أن يذكر أثر الإبتلاء فى أصحاب المحنة والإبتلاء وهو هلال بن أمية فكأنه يصف حاله أيضاً .

« **والله ما به حركة إلى شئ ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا** » .

ولكن الإبتلاء العظيم لم يكن فى مخاصمة الناس للصحابى الجليل بل كانت تلك المخاصمة هى أول درجات الإبتلاء أما قمتها فكانت عندما حاول إبليس عدو الله استغلال الموقف واستغلال ما قد يتصوره فى النفس الإنسانية من ضعف فيختار لعنه الله لحظة استنكار الناس لكعب وهو العزيز بينهم ومن أعلى الناس نسباً ليطرح عليه الكفر بدلاً من الإيمان تحت حماية نقطة الضعف والتى هى إنكار الناس لعزة كعب ومكانته فيمنحه البديل النفسى فى ذات اللحظة التى يتصور احتياج المؤمن لها ، إنها لعبة الشيطان المتكررة على مر التاريخ وقد مارسها الشيطان على الصحابى فى كلمات لا تزيد عن عشرين كلمة أرسلها له ملك غسان « **أما بعد فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك** » .

وهذه الكلمات أرسلها ملك غسان فى قطعة من الحرير لتسلم إلى يد كعب بن مالك رضى الله عنه من عدو للمسلمين يدرس جبهتهم الداخلية بدقة لعله يجد منفذاً ، وتكمن قوة هذا الإختبار فى أمور ثلاثة .

أولها: وقت الإبتلاء (الإختبار) .

ثانيها: يكمن فى شخصية مرسل الرسالة .

ثالثها: فيكمن فى الواقع الذى يحيط بالإبتلاء (الإختبار) .

وقت الإبتلاء

فأما وقت الإبتلاء فقد أتى عقب صدور القرار الإحتياطى إن صحت التسمية بمقاطعة الثلاثة الذين خلفوا ويضاف على ذلك ما أصاب كعباً بصفة خاصة إذ يتسور جدار حائط أبى قتاده وهو ابن عمه ثم يستحلفه بالله أن يجيب عليه سؤاله فلا يرد ويزداد الأمر صعوبة حينما يأبى ذلك الأخ والقريب حتى أن يرد على كعب سلامه « **حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتاده وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فو الله ما رد على السلام فقلت يا أبا قتاده أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار** » .

إلى هنا يتضح لقارئ اليوميات تلك الصعوبة التى أنشأها وقت البلاء وطريقة الشيطان فى استغلال التوقيت إذ يقول صاحب اليوميات بعدها مباشرة « **وتوليت حتى تسورت الجدار ، قال وبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطئ من أنباط أهل الشام ممن قدم لطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك** » .

تلك إذن أدق اللحظات وهى لحظة الصفر التى أرادها الشيطان لمعركته وهى لحظة يتصور فيها الشعور بالهوان والمذلة إذ يخاطب الصحابى أقرب الناس إليه فلا يرد عليه سلاماً ولا قولاً فيتخير الشيطان هذه اللحظة ليرسل إليه على شكل دعوة من ملك غسان مع ملاحظة أنها على قطعة من حرير لإحداث المقابلة النفسية فى نفس الصحابى بين ما قد يشعر به من هوان وبين أن تأتيه رسالة من ملك على قطعة من حرير يعرض عليه فيها العزة والتقدير .

مرسل الرسالة

وأما عن مرسل الرسالة فهو ملك غسان فلم يكن من البسطاء أو العامة بل كان ملكاً قادراً على إنجاز وعده ومنح الصحابى ما افتقده من عزة .

وبغض النظر عما سيحققه ملك غسان لنفسه من منافع إلا أن عبارات الرسالة لا تشير إلا إلى المنافع الظاهرة التى ستعود على المبتلى صاحب اليوميات رضى الله عنه وأما ما يعود على ملك غسان فقد أخفاه فى نفسه « **أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك** » .

وهى كفيلة بإثارة مشاعره ومخاطبة عناصر النقص فى نفسه كما أن مرسلها قد أحسن إختيار ألفاظها فانظر إلى الدقة فى إختيار لفظ (**صاحبك**) ومعه فى السياق لفظ (**جفاك**) ولسان حال الرسالة يتعجب هل يكون صاحبك من يجافيك ؟ ! وهو المعنى المقصود ، ثم انظر إلى إستخدام عبارات (**الهوان**) و (**المضيعة**) ولا ينسى ملك غسان أن يضع الإطار المقبول لهذه الرسالة وهو الإطار الذى سيسهل على النفس إمتصاصها وقبولها وهو الإطار الإيمانى كتعبير عن الأرضية المشتركة أو قل إن شئت ستار الأرضية المشتركة الذى قد يبعد عن النفس الإنسانية شكل الخيانة للجماعة المسلمة .

كل هذا تحققه عبارة (**ولم يجعلك الله**) والتى يستخدم فيها لفظ الجلالة لإضفاء اللون الإيمانى على رسالة الخيانة والتمرد .

كما أن توقيت الإنتقام للذات من الجماعة كان إختياره دقيقاً فهى ذاتها تلك اللحظة الضعيفة التى تدفع الإنسان إلى اللجوء إلى أعداء الجماعة الصالحة تحت دافع خفى وهو الإنتقام للذات وإن كان لظاهر التصرف مظلة تخفى حقيقته حتى عن نفس المرء أحياناً .

واقع الإبتلاء

أما عن واقع الإبتلاء فلا تلخص أيام المحنة إلا كلمات الصحابى الجليل كعب بن مالك والتى تصف حاله وقت عرض الرسالة .

(حتى تنكرت فى نفسى الأرض)

وأما عن حال الناس معه (**فاجتنبنا الناس**) حتى هؤلاء الذين كان يحسن إليهم ويتصدق عليهم إمتنعوا حتى عن سؤاله إنهم يتحرجون حتى فى رد السلام .

ثم إن الامر فى حالة تعليق فلقد صدر عقاب وقد إنتهى الموقف عند هذا الحد وفضلاً عن ذلك فقد طالت المدة حتى بعد أن تلقى الرسالة فقد استمر واقع الإبتلاء ليزداد باعتزال امرأته جبراً .

إنه إبتلاء عظيم صنع واقعاً مراً أليماً ،

تلك العناصر الثلاثة للإبتلاء والتى أوجزناها فى وقت الإبتلاء وصاحب الرسالة ودوافع الإبتلاء شكلت ذلك الحجم الضخم أمام الرسول ﷺ وهو يربى أحد رجال الصفوة من الصحابة المقربين ومع ذلك فقد نجح القائد فى إعادة صياغة الجندى المتميز كعب بن مالك بل ونجح الجندى فى أن يزداد تميزاً .

إعادة الصياغة

وهى المهمة الثالثة على عاتق الحبيب المصطفى ﷺ إنها أشبه بإعادة السلاح الفعال إلى فعاليته السابقة إذا ما أصابه صدأ ولو قليل ومعالجة الأمر بصورة سريعة تتناسب مع متطلبات الموقف ولا ينبغى أن تطغى السرعة على الوقت اللازم للمعالجة فالمطلوب هو إنجاز المهمة ولكن فى وقتها المناسب .

وقد علم الطبيب المصطفى ﷺ أن نفساً كنفس كعب ما كانت لتجنح إلى الدنيا بأى قدر وأن ما ملكه من أرض وحدانق إنما ملكها فى يده ولم تملك هى قلبه ولو بقدر قليل ، ومع أن الأمر قد اختل فى نفسية كعب ولو بنسبة قليلة إلا أن ذلك لم يؤثر فى طبيعة كعب الصادقة .

هذه هى معطيات الحالة ودوافعها عند المصطفى ﷺ تصل إلى درجة اليقين من حيث الصحة فالصحابى صادق .

(أما هذا فقد صدق)

ولم يكن فى واقع الصحابى المادى ما يمنعه وليس لديه سبب من أسباب الإعفاء من الغزو والمنصوص عليها شرعاً « **ووالله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك** »

ومن هنا فإن العلة قد كمنت داخل النفس الإنسانية ولم تكن خارجها وليست نفس كعب بن مالك كأى نفس فهى الحصن المنيع أمام سهام إبليس وحيلته فمن أين اخترقت تلك القلعة الصامدة ؟

إن كعباً فى يومياته يقر بأن الشيطان قد غزاه باستخدام طول الرجاء والأمل وتسويف ما حان وقته حتى يفوت زمانه ووقته .

(فأصبح رسول الله والمسلمون معه فلم أقض من جهازى شيئا)

ثم المبالغة فى الإرجاء حتى أضيق الأوقات « **فقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً** » .

وبعد هذه المغالبة والمصارعة أعلن إبليس إنتصاره فى جولة من أهم الجولات « **فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتنى فعلت فلم يقدر لى ذلك** » إذاً فقد استعمل الشيطان سلاح الإرجاء .....

وكان على الحب المصطفى أن يعود بهذه النفس البيضاء النقية إلى سالف عهدها وإذا كانت هذه النفس اللوامة تبحث عن خلاصها من ذنبها فلم يكن من المفيد أن يعود إليها طوق النجاة فى ذات اللحظة دون أن تطهر نفسها باللوم وعذاب الانتظار فكان الوقت هو المدخل الأول لإعادة الصياغة والتربية وكان هو الوعاء الذى احتوى طرق العلاج المتباينة وبدا الوقت مع شهادة الصدق بل واعتمد على طبيعة الصدق فى نفس كعب كمدخل للعلاج .

(أما هذا فقد صدق . . فقم حتى يقضى الله فيك)

وكانت هذه هى المرحلة الأولى ثم استمر الوقت لمدة أطول للعبور إلى المرحلة الثانية « **حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين** »

ثم انتهى **الوقت** عند تمام العلاج والمرحلة الأخيرة « **فلبثنا على ذلك خمسين ليلة** »

ومن خلال تلك الفترة الطويلة بدأت جرعات العلاج فعلى الإنسان أن يعلم أن عزته ومجده وهيبته لا يحددهم إلا مدى الولاء إلى أمته المسلمة وأن التمايز والتفاخر بالجاه والسلطان إنما هو تفاخر وتمايز لا أصل له فى المجتمع

المسلم كما أن مرده على النفس الإنسانية يكون بإضعافها والحط من إرادتها وكان على الطبيب وهو يعالج أن يظهر الفارق للصحابى بين الحالتين ، حالة يملك الإنسان فيها مالاً فى يده فلا يؤثر على قراره الإيمانى ، وحالة تخاطب فيها الأموال قلبه وتصنع زهوه وتثقل من قدميه إلى الأرض فيبتعد عن الجماعة كأول صورة من صور الشعور بالتميز والاهتمام بما لا ينبغى الاهتمام به ثم يتطور الأمر إلى الخوف على ما فى اليد من ملكية بما يتبع ذلك من منحها الوقت والجهد حتى تمتلك المملوكات مالكها كله - عقله وجسده ووقته وانفعاله وينسى مجتمعه وإخوانه فى مرحلة مهلكة .

صحيح أن الأمر يبدأ فى حرمان المجتمع من وقت قليل يتم تحويله إلى الممتلكات ومن السهل أن يستساغ ذلك ، لاسيما فى ظل الأزمات المالية الطاحنة فى أيامنا هذه إلا أن الحذر والتحذير ليس من الخطوات الأولى أو من المراحل الأولى على كافة أشكالها بل من النهاية التى يجب أن يحذر الإنسان منها ، لذا كانت الآية محذرة من النهاية « **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر** » .

ولا يقولها الشيطان إلا بعد الخطوات .

فالملكية الناضجة التى منحها المرء قليلاً من الوقت لا ينبغى أن تتملك حتى قليلاً من النفس وإن هى تملكت قليلاً من النفس مع الوقت فإنها تلح فى أن تدفع الإنسان إلى أن يتبنى ملكية أخرى فيمنحها بعضاً من الوقت وذلك على حساب الوقت الذى يجب أن ينفقه المرء مع الجماعة المسلمة والملكية الجديدة تأخذ نصيبها من النفس ولا شك ومن الوقت أيضاً ثم يتطور الأمر إلى نصف الوقت حتى تلتهم المملوكات كل الواجبات ويتحول المالك إلى مملوك يخدم سيده ويمنحه وقته وعرقه وجهده وإنفعالاته وشغفه

وأمله ويأسه وتنهار المشاعر الإسلامية السامية أمام مشاعر السوق المستحدثة ويحل تنافس الصناعة والزراعة وجودة المنتج محل منافسة الجماعة فيما بينها على فعل الخيرات والتسابق إلى الدعوة إلى طريق الجنة ولأن المصطفى ﷺ يجب أن يعيد المعادلة إلى أرقامها الصحيحة وبالطبع لا يكون ذلك فى إلغاء المال أو غريزة التملك ولكن يكون ذلك فى التحذير من أن تتحول ملكية الإنسان للمال لخدمة الجماعة إلى ملكية المال للإنسان على حساب الجماعة .

وحتى يتم إصلاح الأمر ، منع الطبيب عن مريضه أنس الجماعة ليذيقه مرارة الوحدة التى اختارها لنفسه عندما تخلف بسبب اهتمامه بالمملوكات .

وكأنه ﷺ كان يدعو صاحبه إلى تجربة الأمر بالمال وليس على قدر الواقع والحال .

فالحرارة قد بدأت فى الإرتفاع ، صحيح أنها لم ترتفع كثيراً ربما درجة أو أقل ولكنها نذير ببداية المنزلق الذى سيصل به إلى اعتزال الجماعة والذى ينتهى به إلى أن يحرم نفسه من الجماعة وأن يحيا لنفسه فقط ذلك أن شيئاً قد شغل الصحابى عن حاجة الجماعة إليه وكان هذا التخلف بداية لمرض يحتاج إلى العلاج الفورى ومن هنا فإن النظرية قد بدأت فى الإهتزاز فى قواعدها .

فلم يعد أمر ملكية الإنسان لخدمة الجماعة كما يدعى الصحابة وإنما المال هو الذى بدا فى تملك الإنسان على حساب الجماعة فى غريزة هى تعبير عن مصلحة الجماعة التى انشغل عنها أحد المقاتلين الأفذاذ .

والعلاج يأتى بتجربة الأمر كما سبق القول فمنح النبى صاحبه فرصة المعايشة لواقع كان يسير إليه بخطى سريعة وهو واقع إعتزال المجتمع والذى

يكاد أن يصل إليه المرء بعد أول هزيمة أمام الشيطان فهى الأصعب دائماً وبعدها تتوالى الهزائم والإنهيارات وبدلاً من أن يكون المال خادماً يصبح هو المخدوم .

إذن فقد حرم النبى ﷺ صاحبه من الجماعة لأن مآل الأمر كان سينتهى بهذا الصحابى إلى أن يحرم نفسه من الجماعة لو استمر فى هذا الخطأ .

ثم أبقى ﷺ على كل العناصر التى شغلت الصحابى عن الغزو فأبقى له أرضه وحدائقه وماله ولم يأخذ منه إلا الجماعة .

« **ونهى ﷺ المسلمين عن كلامنا** » .

والتزم المسلمون بالأمر طبعاً « **فاجتنبنا الناس** » .

حتى النبى ضرب بنفسه المثل فمنع نفسه على عناء وإمتنع حتى عن مجرد النظر إلى الصحابى مغالباً كل مشاعره الفياضة ﷺ .

« **ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى** » .

وحتى أقرب الأقارب وأعز الأصدقاء وأحب الناس إليه أبو قتاده الذى تجمعت فيه وفى علاقته بكعب كل هذه الصفات المجتمعة أبى أن يحدثه ولو بالسلام « **فسلمت عليه والله ما رد على السلام** » .

ولأن الزوجة هى جزء من المجتمع المسلم فقد سرى عليها نفس ما سرى على بقية أفراد المجتمع من إجراء فلتكن التجربة كاملة إذن وبنفس الترتيب الذى سيحدث إذا ما تملك المال من الإنسان فهو يبدأ بمجتمعه فعلاً وتكون الزوجة هى آخر الضحايا .

« حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك » .

وهكذا اكتملت الدائرة فليجرب كعب إذاً واقع الإبتعاد عن الجماعة المسلمة وليحاول أن يتحمله لمدة خمسين ليلة فقط .

وكانت نتيجة التجربة كما وصفها صاحب اليوميات تلك المشاعر التى آلمته إلى الدرجة التى تنكرت فى نفسه الأرض وضاقت عليه الأرض بما رحبت إنه إذاً قد رأى الحال بعين رأسه وليس من المهم أن يكون المريض على علم بطبيعة الدواء أو تركيبة الأجزاء منه إلا أن الثقة فى الطبيب هى التى تجعل المريض يصبر على ألم الدواء ومرارته .

واستمر العلاج لخمسين ليلة وهو المزيج من قرارات ثلاثة :

١ - إرجاء الأمر إلى أن ينزل الله فى كعب وأصحابه قرآناً مهما طال الوقت وهو شعور بالقلق يأتى بإيلام أشد مما لو نزل به العقاب .

٢ - إصدار الأمر إلى جماعة المسلمين باجتنابهم حتى وصل الأمر إلى أقرب الأصحاب وأقرب الأقارب وإلى عدم رد السلام حتى من أحب الناس إلى قلبه .

٣ - اعتزال كل منهم لإمرأته .

وهذه النقاط الثلاثة التقى بها كعب بأمر من الرسول ﷺ وكأنه يرى حاله عند التمادى إلى نهاية الطريق ، وقد أتى هذا المزيج بنتائجه الرائعة وارتقى كعب إلى درجة كان عليها قبل أن تحدثه نفسه بما حدثته بل ارتقى فوق تلك الدرجة بعهده مع الله وهو ما نطلق عليه نجاح مهمة المربى فالغاية

من أى إجراء علاجى هى الإصلاح حتى لو كان الردع العام مستهدفاً فإن الإصلاح الفردى هو الهدف الأسمى من العلاج والذى حصل عليه المسلمون بالحب بين القائد والجنود .

إن كثيراً من القادة يعالجون على أرضية غير أرضية الحب بل إن بعضهم ينتقمون تحت ستار العلاج أو العقاب ولن تحصد الجماعة فى تلك الحالة إلا الخسارة - خسارة فى أفرادها وخسارة فى ضياع المنهج الصحيح .

ألم تر كيف استخدم الشيطان مع كعب سلاح الوقت والإرجاء ... وكيف إنتصر عليه النبى ﷺ بإستخدام ذات السلاح . . . فى علاج كعب .

وألم تر كيف كانت نظرة الحب بين القائد المعالج وبين المبتلى وسط المقاطعة وجرعات العلاج .

إن المصطفى ﷺ هو المسلم القدوة ... والجندى القدوة ... والقائد القدوة .. ﷺ .

خاتمة

نجاح مهمة المربى ﷺ كما رواها صاحب اليوميات

وإذا كان كعب بن مالك قد مر بمشاعر عديدة أثناء هذا الابتلاء كالألم النفسى والتردد والهم بالخطأ ثم العودة إلى الصواب كمرحلة أولى حين قال:

١ - « **فطفقت أتذكر الكذب** »

٢ - « **وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى** »

٣ - « **فو الله مازالوا يؤنبوننى حتى هممت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسى** »

إلا أن المشاعر المتباينة وهذا الصراع الداخلى كان بمثابة الزلزلة التى هدمت كل ضعف فى نفس كعب وأبقت على القوة فيه .

كانت هذه الإختبارات بمثابة حواجز وعقبات يجب عليه أن يتخطاها وهو فى سباقه إلى رضى الله عنه مرة أخرى كى يفر إلى الله من ذنبه إذ عصاه ، وقد نجح كعب فى ذلك .

ولا نجد غرابة فى أن تتعرض هذه النفس وهى فى هذه المرحلة إلى المقاطعة والإجتناب ثم إلى عدم المصافحة من المسلمين والإمتناع عن رد السلام من أقرب الناس إليه ثم تتعرض إلى فتنة العرض السخى من ملك غسان بالهجرة إليه ليكون عزيزاً سيداً ثم بالأمر باعتزال زوجته وكلما خرج من حلقة دخل فى حلقة أضيق منها .

كل هذا مع نظرات النبى الحانية عليه ومتابعته ﷺ له والنظر إليه فى الصلاة بطريقة المسارقة الخفية .

ولعله ﷺ كان يرسل إليه من يتابعه دون أن يراه ولعله علم بأمر ملك غسان .

بل إنى لأتصور الحبيب المصطفى ﷺ وهو يمنح كعباً درجاته النهائية فى كل امتحان ولكن النجاح أيضاً كان على مراحل فإذا ما لامه أهله وعشيرته . أجابهم بالإصرار على ما فعل عن صدق وبمزيد من الإصرار بعد أن سأل عمن يزامله محنته فأخبروه باسم مرارة بن الربيع وهلال بن امية الواقفى ، وهنا وضع اجابته على الاوراق فى الامتحان الاول بالاصرار على الصدق .

(فمضيت حين ذكروهما)

وهنا يحصل كعب على درجات السؤال الأول فى الامتحان إن صح التعبير ثم بدأ الامتحان الثانى وهو عبارة عن دائرة اضيق من سابقتها **(فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا)** .

ثم ما كان بينه وبين ابن عمه وحبيبه أبى قتاده من امتناع ذلك الحبيب والقريب حتى عن رد السلام وهنا يأتى الابتلاء بملك غسان .

« أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك »

وفى هذه المرة كانت الإجابة أسرع وأقوى مما يتصور الشيطان وأتت إجابة الصحابى الجليل كتعبير عن عمق إيمانى كبير ، وعن فهم إسلامى رائع ، وعن حب لله ولرسوله ، وفهم لطبيعة الإبتلاء وحكمته وغايته **(فقلت لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها)**

إذن فقد كانت الإجابة الثانية فى الإمتحانات الربانية هى حرق الشيطان حرقاً والقضاء على أمنياته الشريرة بأن قام الصحابى بحرق الخطاب وهى إجابة أسرع ولم يصبها التردد بل كانت أشد فلم تكن بالرفض وإنما بالحرق كما أن النظر إليها كان عن علم وتفهم باعتبارها من البلاء وهو ما يعبر عن تطور هائل فى نفسية الصحابى الجليل وهنا كان النجاح فى المرحلة الأدق والأصعب وهو نجاح يؤهله للمرحلة الثالثة ويؤهله للمستوى الأعلى .

فأما الدائرة الثالثة فهى الأضيق وتمثلت فى الأمر باعتزال امرأته رضى الله عنه « **إن الرسول يأمرك أن تعتزل امرأتك** » .

وكان نجاح كعب بن مالك رضى الله عنه فى هذه الدائرة الأضيق هو النجاح الثالث والأخير فى سلسلة الإبتلاءات وكان هو الأشد ولاشك ، فماذا بعد أن قاطعه الناس لمدة أربعين ليلة سابقة ؟ هل تكتمل الحلقة بحرمانه حتى من مخالطة امرأته .. !!! إلا أن نجاح الصحابى فى هذه الحلقة عجل بإعلان فوزه برضا الله عز وجل بل أنه حاول أن يتفوق على نفسه .. وأن يمنعها حتى من المباح .

ذلك أنه رضى الله عنه قد أبى مفاتحة النبى ﷺ فى أمرٍ أباحه لغيره ﷺ فكانت امرأة هلال بن أمية قد استأذنت الرسول ﷺ فى خدمة هلال وقد أذن لها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بشرط ألا يقربها .

إلا أن صاحب اليوميات قد رفض ذلك ورفض حتى أن يطلب ذلك من النبى ﷺ .

لقد حرم نفسه من مباح وكانت علته فى ذلك هى الخوف من إجابة محتملة بالرفض أو أن يظن به الحبيب المصطفى ﷺ ظناً وقرر ذلك ونفسه

قوية ثابتة غير مترددة مؤمنة بحكمة الابتلاء غير متحايلة عليه إن هذه النفس المهتمة برؤية قائدها لها وفى أن يراها فى أحسن ثوب وفى أحسن قبول لحكم الله ورسوله ،قد تعدت درجات النجاح .

(فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما استأذن هلال بن أميه أن تخدمه فقلت : والله لا أستأذن فيها ﷺ وما يدرينى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنت فيها وأنا رجل شاب ؟) .

فكان ذلك هو نجاحه فى الدائرة الثالثة وحصوله على الدرجة النهائية ومن هنا فإن للقارئ أن يلاحظ الفارق فى نفسية صاحب اليوميات بين أول اختبار وبين آخر اختبار ، والذى كان فى هذا الموقف الأخير . ذلك أن عشيرته حينما حدثوه بأن يعتذر إلى رسول الله بعذر ما وأنه سيكفيه استغفار الرسول له .. رفض كعب هذه النصيحة ولكن بنفسية مترددة وظهر ترددها من خلال عبارته

(فو الله ما زالوا يؤنبوننى حتى هممت أن أرجع فأكذّب نفسى)

ولكن على العكس من ذلك فقد واجه الإمتحان الأخير بنفس ثباته وبإجابة استهلها بالقسم وأنهاها بالعبارات الثابتة

(والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم)

نعم إنه الآن كعب بن مالك الذى يجب أن يظهر كقدوة أمام الجماعة المسلمة وأن يتحاشى حتى مواضع الظن .. عند قائده .. وأن يظهر أمام قائده بأحسن مما يتمناه فيه .. ومنه .. والآن اتزنت النفس التى كانت قد اهتزت .. وانتهت بالمرور بمنعطف الابتلاء وفهمت حكمته وعاد إليها الحرص على الجماعة الذى لم يكن حينما تخلفت عن الغزو فى لحظة ضعف فلو

قالت نفسه ساعتئذ ماذا يقول الرسول عني ؟ لما فعلت ؟ .. فبعد أربعين ليلة .. أصبح لكعب نفس تتوق إلى نظرة القائد واحترام الجماعة ؟

وقد علم أيضاً أن الجماعة لا يعوضه عنها أموال الدنيا .. وأن الإنسان قد يحيا بلا مال ولكنه لن يحيا أبداً بدون جماعة مسلمة .. تحميه من الهلاك .. وتعينه على الإستقامة .. فبعد أربعين ليلة .. تجلت الحقائق أمامه فاستمر في وحدته يصلي الفجر على سطح البيت ويعد طعامه لنفسه ولا يجد سميراً يستمع منه وإليه ..

إلا أن هذا النجاح ما كانت نتيجته لتتأخر وما كان إعلانه ليتأخر كذلك .. فبعد عشر ليالٍ من إجابته الأخيرة وصلت نفسه إلى درجة الإخلاص .. فضاقت عليه الأرض بما رحبت وعند ذروة الألم تكون ذروة الفرحة بإنتهاء المحن فحينئذ أُعلنت نتيجة الامتحان في آيات خالدة ..

(لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم - وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم)

١١٧ . ١١٨ سورة التوبة .

إلا أن إعلان النجاح لصاحب اليوميات وأصحابه كان مميزاً فقد أفرد القرآن لهم آية مستقلة .

وعلى المستوى الشخصي كان من المتصور لهذه التربية أن تعيد الصفات الأصلية لصاحب هذه اليوميات .. إلا أن الأمر قد تعدى ذلك بكثير فالصحابي الجليل قد وصل إلى درجة رفض كل ما يمكن أن يباعد

بينه وبين الجماعة المسلمة .. وأصبحت نفسه فى حالة رفض كامل لمتاع الدنيا ذلك لأنها لم تعد فى قلبه - أى الدنيا .. وهو لا يريد منها أيضاً أن تصبح فى يده.. نعم لقد اتجه الصحابى الجليل إلى أقصى الجهة المقابلة إذ يقول :

(يا رسول الله ﷺ إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله)

ويأتى دور الضبط النهائى لتك النفسية الرائعة .. وبمعنى أدق : أراد المصطفى ﷺ أن يضع اللمسات الأخيرة لآثار تلك المرحلة التربوية الدقيقة .. فنحن ندور داخل قواعد ثابتة لا ينبغى الإبتعاد عنها لاسيما إذا كان الإبتعاد بسبب الموقف الإنفعالى للنفس الإنسانية

ومن هنا فإن المصطفى ﷺ قد رد الأمور إلى وسطيتها بقوله لصاحب اليوميات :

(أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك)

فخيرُ لك أن تكون وسطى النزعة .. وأن تمسك أنت بدفة نفسك وقيادتها وبهذا وجه المصطفى ﷺ الصحابى الجليل إلى آخر خطوة خير يخطوها ، فإمساك بعض المال يكون فيه الخير له .. فمن المفهوم والحال كذلك أن إمساك بعض المال ليس هو المقصود من عبارة المصطفى ﷺ .. وإنما المقصود أن نفس كعب أصبحت فى حالتها الأولى وأفضل .. فعليها أن تتصرف كما كانت .. فلا مبالغة ولا معاقبة للنفس .. وإنما عودة إلى ملكية المال فى اليد وإلى إنفاقه فى صالح المسلمين .. وإلى تدريب النفس على التجارة والعمل والكسب وإطعام الأولاد من رزق حلال والإنفاق فى سبيل الله والصدقة .. كل ذلك فى وعاء واحد يملك المال ولا يملكه المال .. ويكون فيه المال خادماً لنا لا مخدوماً علينا ..

ولم تكن الحالة المفرطة من التخلى عن المال هو الأثر الإيجابى الوحيد للإعداد والتربية ذلك أن الصحابى الجليل قد وهب نفسه للصدق .. وقد تجد من الناس من يهب نفسه لخدمه أو لعمل إلا أنك لن تجد من يهب نفسه لقيمة من القيم أو صفه من الصفات : (**يا رسول الله ﷺ إن الله إنما نجانى بالصدق وإن من توبتى ألا أتحدث إلا صدقاً ما بقيت**) .

ومن هنا فإن صاحب اليوميات قد أوفى بعهده مع الله .. كما شهد الناس بذلك (**فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى .. ما شهدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذباً وأنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت**) .

وهكذا

انتهت يوميات الصحابى الجليل كعب بن مالك وهو يروى قصته مع الإبتلاء وإنتهت صورة من صور نجاح القيادة فى علاج النفس المسلمه .

وانتهت معركة الإبتلاء بنجاح باهر . . حظى فيه الصحابى بالتوبة . . وهى أهم المكافآت وأعلاها . . وحظى بإعادة نفسه إلى ما كانت عليه قبل المحنة بل لعله ارتفع قدراً عما سبق . . ثم حظى بعهد مع الله ألا يقول إلا صدقاً . . وقد أوفى بعهده . ووهب حياته لخدمة الصدق كقيمة خلقية ثم هو فى النهاية قد حظى وأصحابه بمرتبة الخلود مع آيات القرآن فأصبحت التوبة قرآناً يتلى إلى قيام الساعة . **رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ** .

تم بحمد الله

مختار نوح
سجن ملحق طره
٢٠٠١

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
٢٠٠٣ / ٣٦٧٣

توزيع مركز المستقبل للدراسات
تليفون : ٣٩٥٨٢٦٢
دار خلود للطباعة والنشر
تليفون : ٣٩٠٢٦٦٤